غسان كنفاني

موت سرير رقم ١٢





سلسلة أعمال غسان كنفاني ١

HAMDAN.B
23/11/2009

غسان كنفاني

موت سرير رقم ١٢

سلسلة أعمال غسان كنفاني ١

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* موت سرير رقم ١٢، قصص قصيرة لغسان كنفاني.
* الطبعة الرابعة ١٩٨٧، (الطبعة الثالثة ١٩٨٣، الطبعة الثانية ١٩٨٠، الطبعة الأولى ١٩٦١).

* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.
- ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان.

— **IAR (RAWFID) Ltd.**

P.O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357)2 - 452670, Tlx. 5223 Rawafid - Cy.

* التنفيذ الفني: دار المثلث ش. م. م، بيروت - لبنان.

غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام **١٩٣٦**، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة **١٩٤٨** تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام **١٩٥٦** حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام **١٩٦٠**، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام **١٩٦٣** رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام **١٩٦٩** حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) **١٩٧٢**.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام **١٩٦٦** جائزة «**اصدقاء الكتاب في لبنان**» لافضل رواية عن روايته «**ما تبقى لكم**» ، كما نال جائزة **منظمة**

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام **١٩٧٤**، ونال جائزة «**اللوتس**» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام **١٩٧٥**.

مؤلفاته :

* موت سرير رقم **١٢** (قصص) **١٩٦١**، * ارض البرتقال الحزين (قصص) **١٩٦٢**، * رجال في الشمس (رواية) **١٩٦٣**، * الباب (مسرحية) **١٩٦٤**، * عالم ليس لنا (قصص) **١٩٦٥**، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) **١٩٦٦**، * ما تبقى لكم (رواية) **١٩٦٦**، * القبعة والنبي (مسرحية) **١٩٦٧**، * في الادب الصهيوني (دراسة) **١٩٦٧**، * عن الرجال والبنادق (قصص) **١٩٦٨**، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) **١٩٦٨**، * ام سعد (رواية) **١٩٦٩**، * عائد الى حيفا (رواية) **١٩٦٩**، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام **١٩٦٦**، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ ـ ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، **١٩٦٥** * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) **١٩٧٠** * ثورة **٣٦ ـ ٣٩** في فلسطين (دراسة)، **١٩٧٢**.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام **١٩٦٦** * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، **١٩٦١** * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام **١٩٦٥** * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس **١٩٦٤**.

تمهيد

«**موت سرير رقم ١٢**» هي المجموعة القصصية الاولى التي اصدرها غسان كنفاني. وقد صدرت في بيروت عام **١٩٦١** بمقدمة قصيرة كتبها المؤلف يقول فيها:

«انا أؤ من ان الكتاب يجب ان يقدم نفسه، واذا عجز عن احراز جزء من طموح كاتبه، فعلى الكاتب ان يقبل ذلك ببساطة، كما قبل ـ مرات ومرات ـ ان يمزق قصصا ليعيد كتابتها. وهكذا «فموت سرير رقم **١٢**» ادفعها لتشق طريقها، ان استطاعت ان تهتدي الى اول الطريق، بنفسها، دون شفاعة ودون وساطة ودون جواز مرور».

ولأنها المجموعة الاولى؛ فان «**موت سرير رقم ١٢**» تحمل الاتجاهات الرئيسية التي كانت تجربة كنفاني الابداعية تحاول اكتشافها وبلورتها.

نستطيع ان نميز ثلاثة خطوط رئيسية في المجموعة:

الخط الاول: هو الخط الفلسطيني، اذا صح التعبير، حيث تبرز القصة القصيرة بوصفها استجماعا للحظة التاريخية واستنطاقا للذاكرة في سبيل صياغة رؤية فلسطينية جديدة تنطلق من الواقع المعاش ومن احتمالاته المتعددة. وفي هذه القصص يبرز النبض الحار لنثر كنفاني وقدرته على تكثيف اللحظات النثرية في رؤية تمزج بين مرارة الواقع وامكانيات تغييره.

الخط الثاني: خط المعاينة الواقعية، حيث يقدم كنفاني مجموعة من القصص الواقعية التي تصف حياة الناس في الخليج (حيث كان يقيم)،

وسوف تكون هذه المحاولات الواقعية البذرة التي ستنمو وتتطور في كتابات كنفاني اللاحقة.

الخط الثالث: هو خط طرح الاسئلة على الوجود، من سؤال محمد علي اكبر حول الموت، الى سؤال قصة «الارجوحة» حول الحب والعلاقات الانسانية.

هذه الخطوط ليست متوازية، بل انها تتقاطع في اكثر من قصة ليشكل تقاطعها النبرة الخاصة التي استطاع كنفاني ان يؤسسها في القصة العربية القصيرة.

فمن خلال تقاطع الخطين الاول والثاني، سوف تبرز رواية «**رجال في الشمس**» لتقدم من خلال واقع الفلسطينيين المهاجرين الى الخليج صورة رمزية للواقع الفلسطيني والعربي بأسره. كما سيتطور هذا الخط في رواية «**ام سعد**» ليقدم لوحة نضالية عن تجربة المخيم الفلسطيني وسط القتال. وسيسمح الاتجاه الثالث لكنفاني ان يكتب روايته «**الاعمى والاطرش**» التي استشهد قبل اكمالها، ولكنها تعبر عن الكيفية الجديدة التي تطرح فيها اسئلة الوجود داخل التجربة الفلسطينية.

وقد قام دنيس جونسون ديفيس بترجمة قصة «موت سرير رقم **١٢**» الى اللغة الانكليزية، ونشرت ضمن المجموعة المختارة من القصص القصيرة العربية الصادرة عن منشورات اكسفورد.

الناشر

الإهْـدَاء

الى اختي فائزة . . .

إن كان في القصص ما يستحق ان يهدى الى العزيزة فائزة . . .

غسان

المحتويات

مقدّمة

جرت العادة ان يحصل الانتاج الاول لاي كاتب على «جواز مرور» للقارىء. . . كلمة لقلم مشهور تتصدر الكتاب. . او جمل موجزة على ظهر الغلاف، او حملة دعاية واسعة يشترك فيها الكاتب والناشر واصدقاء الطرفين، يحكون فيها كيف خلقت القصص، وكيف نزفها القلم المجروح، وكيف. . وكيف. .

انا اؤمن ان الكتاب يجب ان يقدم نفسه، واذا عجز عن احراز جزء من طموح كاتبه، فعلى الكاتب ان يقبل ذلك ببساطة، كما قبل - مرات ومرات - ان يمزق قصصاً ليعيد كتابتها. . . او يكتب سواها.

وهكذا «فموت سرير رقم ١٢»، أدفعها لتشق طريقها، ان استطاعت ان تهتدي الى اول الطريق، بنفسها، دون «شفاعة» ودون «وساطة» ودون «جواز مرور». .

حتى هذه الكلمة، كان يجب ان لا تكتب لولا انني اردت منها شرح نقطة واحدة. .

مجموعة القصص قسمتها الى ثلاثة اقسام. . ولم يكن الهدف من ذلك ملاحقة التطور الزمني، فبعض القصص في القسم الاول كتبت في فترة زمنية اتت في اعقاب القصص التي كتبت في القسم الثالث مثلاً. . ولكن الهدف من هذا التقسيم هو الفصل بين ثلاثة انواع من

القصص، اذا عجزت هي نفسها عن توضيح الفرق بينها، فلن تستطيع هذه الكلمة الموجزة ان تفعل. .

ولا بد ايضا، ولو بدا ذلك غريبا بعض الشيء، ان ارسل عزائي الى العائلة المجهولة التي فجعت بموت ابنها «محمد علي اكبر» الذي مات بعيداً، وحيداً، غريبا، على السرير رقم ١٢، وهو ينزف عرقا نبيلا في سبيل لقمة شريفة. .

غسان كنفاني

القسم الاول

البومة في غرفة بعيدة
شيء لا يذهب
منتصف أيار
كعك على الرصيف
في جنازتي
الأرجوحة

البُومة في غرفة بعيدة

كل صور عدد كانون الاول من المجلة الهندية «أ. .» كانت رائعة، ولكن أروعها بلا شك صورة ملونة لبومة مبتلة بماء المطر. . وتكمن كل روعتها في لحظة اللقطة الموفقة، وفي براعة الزاوية. . وأهم من هذا كله: في اصطياد النظرة الحقيقية للبومة المختبئة في ظلمة ليل بلا قمر.

كنت في غرفتي: غرفة عازب بجدران عارية تشابه إحساسه بالوحدة والعزلة. . أرضها متسخة باوراق لا يدري احد من أين جاءت، والكتب تتكدس فوق طاولة ذات ثلاث قوائم رفيعة، اما القائمة الرابعة فلقد استعملت يداً لمكنسة ما لبثت ان ضاعت. . والملابس تتكوم فوق مسمار طويل حفر عدة ثقوب بظهر الباب قبل ان يرتكز نهائياً في ثقبه الحالي.

قلت لنفسي وانا اشد بصري الى صورة البومة الرائعة:

- يجب ان تعلق هذه الصورة على حائط ما. . فذلك يكسب الغرفة بلا شك شيئاً من الحياة والمشاركة. . .

الصقت الصورة بالفعل على الحائط المقابل للسرير، وأطرتها بورقة بنية كي تنسجم مع الحائط بشكل من الاشكال، كان العمل الفني، اذن، قد اخذ سبيله الى الغرفة، وكان لا بد ان اغبط نفسي على التقاط هذه الصورة.

عندما آويت لفراشي في منتصف الليل، فاجأتني الصورة، كان ضوء الغرفة خفيفاً بعض الشيء وقد يكون هذا هو السبب الذي من اجله بدت لي الصورة في غاية البشاعة، كان رأس البومة اكبر من المعتاد، وكان يشبه شكلا رمزياً لقلب مفلطح بعض الشيء، اما المنقار الاسود فلقد كان معقوفاً بصورة حادة حتى ليشبه منجلا عريض النصل، والعينان كانتا مستديرتين كبيرتين يختفي اعلاهما تحت انحناءة الحاجبين الغاضبين، كان في العينين غضب وحشي، وكانت النظرة ـ رغم ذلك ـ تحتوي خوفاً يائسا مشوباً بتحفز بطولي وتشبه الى حد بعيد نظرة انسان خضع فجأة للحظة ما، عليه ان يختار فيها بين ان يموت، او ان يهرب، كان الوجه مخيفاً وبدا ان العيون المستديرة اللماعة بايماضة حية، كانت تحدق عبر صمت الغرفة، وتخترق برعشتها الحية جمجمتي، وتقول بصرير حاد:

ـ اتذكر؟.. لقد التقينا مرة قبل الآن.

اطفأت الضوء الشاحب، ودفنت رأسي في الغطاء الموسخ بعرق الصيف اللزج، ورغم ذلك، فلقد كنت ارى العينين الغاضبتين الخائفتين تخترقان الظلمة وتحدقان فيّ، كان وجه البومة المتحدي لضغط لحظة ليس فيها سوى الاختيار بين الموت والفرار ماثلا في رأس كانني لم احول نظري عنه بعد، ملحاحاً، غضوباً يتمسح باشمئزاز ساخر، وعبثاً ذهبت كافة المحاولات التي بذلتها لاسلخ الصورة عن رأسي، كانت شيئاً قد دخل الى الغرفة العارية، والى احساسي، وتمزق الصمت الميت تحت الصرير الحاد الذي كان ما يزال ينحدر من المنقار الاسود المعقوف:ـ

ـ لقد تقابلنا مرة قبل الآن. . . اتذكر؟!

شعرت فجأة بانني اعرف هذا الوجه تماماً، وانني ارتبط معه بذكرى يجب ان لا تمحى، نعم، انا اعرف تينك العينين الحادتين الغاضبتين الصامدتين للحظة اختيار مخيفة. . لكن أين تقابلنا؟ متى؟ كيف؟

لقد بدا كل شيء مغلفاً بضباب متكاثف، ورغم ذلك فلقد كانت ثمة ذكرى تلتمع من بعيد، الا انها كانت غامضة مغرقة في البعد، هناك سد كثيف يحول دون رأسي وتلك الذكرى، وكان لا بد من التذكر. فعينا البومة الغاضبتان تبعثان دفقة احساس حاد في نفسي باننا قد تعارفنا قبل الان. . ولكن متى؟ وكيف؟ واين؟.

نهضت من فراشي اذ تيقنت استحالة النوم تحت تلك الوطأة واضأت المصباح ثم وقفت امام الصورة الملونة: العيون هي، لم تزل، تطل غاضبة واسعة مغروسة في الوجه المفلطح العجيب. والمنقار المعقوف كنصل عريض لمنجل اسود، لم يزل، يطبق بعنف على ضرب من الاشمئزاز الساخر، والريش الرمادي الملون بحمرة وقحة يتجمع خصلا كصوف قذر بعد ان ابتل بماء المطر.

سقطت الذكرى، بعد فترة، مدوية صاخبة الى رأسي فأورثتني دواراً مفاجئاً، والتمعت خلال الضباب المتكاثف كل الاشياء التي ذكرتني بها البومة المخيفة، وبدا لي اننا فعلا نعرف بعضنا جيداً.

***

كان ذلك قبل عشر سنوات على وجه التقريب، كنت في قريتي الصغيرة التي تتساند دورها كتفا الى كتف فوق حاراتها الموحلة، اذكرها

الان اشباحاً تتلامح منذ زمن بعيد، كنت طفلا آنذاك، وكنا نشهد، دون ان نقدر على الاختيار، كيف كانت تتساقط فلسطين شبراً شبراً وكيف كنا نتراجع شبراً شبراً. كانت البنادق العتيقة في ايدي الرجال الخشنة تمر امام عيوننا كأساطير دموية، وأصوات القذائف البعيدة تدلنا ان معركة تقع الان، وان ـ ثمة ـ امهات يفقدن ازواجهن، واطفالا يفقدون اباءهم، وهم ينظرون عبر النوافد، صامتين، الى ساحة الموت.

لا اعرف في اي يوم وقع الحدث، حتى ابي ايضاً نسي ذلك، كأن اليوم المشؤوم، كأن اكبر من ان يتسعه اسم او رقم، لقد كان في حد ذاته علامة من علائم الزمن الكبيرة، من تلك التي توضع في مجرى التاريخ كي يقول الناس «حدث ذلك بعد شهر من يوم المذبحة».. مثلا. كان يوماً من تلك الايام لا شك، والا لكنا حشرناه تحت رقم او تحت اسم او تحت عنوان.

لقد بدأ الهجوم قبيل منتصف الليل وقال ابي الشيخ لامي فيما هو يتنكب بندقيته الثقيلة:

ـ انه هجوم كبير هذه المرة..

ولقد عرفنا، نحن الصغار، من اصوات الطلقات ان هناك اسلحة جديدة وان هنالك هجوماً من ناحية اخرى لم تطرق قبل الآن. وأن قنابل حارقة قد سقطت في وسط القرية فاحرقت بيتاً واطفالا، وحين نظرنا من خصاص النافذة الواطئة شاهدنا كمن يحلم ـ اشباح نسوة منحنيات يسحبن جثثاً الى داخل القرية، وكان يستطيع المستمع بامعان

ان يلتقط صوت نشيج مخنوق: احداهن ـ هكذا كانت تشير امي ـ فقدت زوجها وصمودها في آن معاً.

بعد ساعة من الهجوم المباغت، تراجع رجالنا، كانت جهنم قد صعدت الى ظهر قريتنا، وبدا لنا ان النجوم اخذت تتساقط على بيوتنا، وقالت امرأة مرت تحت شباكنا تسحب جثة وتلهث:

ـ انهم يقاتلون بالفؤوس..

وقتال الفؤوس لم يكن غريباً على رجال قريتنا،فلقد كانت الفأس هي سلاح الواحد منهم بعد ان تتقيأ بندقيته كل ما في جوفها، فكان يحملها على كتفه زاحفاً فوق الاشواك الجافة، ثم يشاهد المحاربون من خنادقهم الرطبة شبح انسان راكع، يرفع كلتا يديه فوق رأسه ما وسعه ذلك، وبين كفيه تتصلب فأسه الثقيلة، ثم تهوي الفأس، ويتصاعد صوت ارتطام عريض مخنوق، ويبتلع الظلام انة ممدودة يعقبها شخير عنيف، ثم يصمت كل شيء.

لقد بدأ قتال الفؤوس اذن، هذا يعني ان الرجال قد تلاحموا، وان جثثاً كثيرة قد ضاعت في خطوط الاعداء مطبقة اكفها بتشنج عنيد على الفأس، واضعة انوفها براحة مطلقة على التراب الطيب، ومستلقية بهدوء.

بدأت قريتنا تنكمش، ولم يعد هناك أي عمل للشيوخ غير ان يعودوا الى بيوتهم، ولقد شاهدنا ابي يعود منهكاً، ولكنه لم يضع اية لحظة بل توجه لتوه الى درج عتيق كان محظوراً علينا الاقتراب منه وتناول مسدساً صغيراً دفعه لامي بعد ان تأكد من حشوه، واشار لها بعينيه تجاهنا، انا

واخوتي، وقفل عائداً الى الشارع.

كانت اختي الكبيرة قد فهمت كل شيء، فاخذت تبكي دافنة رأسها في كفيها، بينما ارتعشت امي وهي تحمل المسدس على راحتها وتتوجه الى النافذة، في تلك اللحظة قرع باب عتيق كان يفصل بيننا وبين جيراننا ـ ولم نكن نستعمل ذلك الباب على الاطلاق ـ وصاح صوت العجوز، جارنا، راجفاً: افتحوا.. افتحوا..

أز الباب ازيزاً رفيعاً اذ سحبته امي فاندفع العجوز الى الغرفة خائفاً، واجال بصره فينا، ثم توجه لامي وهمس في اذنها كلاماً ابدت استنكارها له، ثم عاد فهمس بحماس اكثر. فترددت امي ثم هزت رأسها موافقة، واشارت الي ان اتبع العجوز الى بيته..

دخلت خلف العجوز الى غرفة دافئة مفروشة ببسط ملونة. واخذت اراقبه فيما هو يحرك ستارة، ويتناول من ورائها صندوقاً صغيراً يضعه برفق بين ذراعي، شعرت بان الصندوق اثقل مما يبدو فتساءلت برأسي، واتاني الجواب من فمه الأدرد:

ـ هذه قنابل كان المرحوم ابني خبأها هنا..

وهز رأسه بأسى، وانتبهت لكلمة «المرحوم» التي لم تكن تستعمل قبل ذلك في هذه الغرفة، ولا في بقية الغرف، فراودني شعور بالخوف بينما استمر الشيخ:

ـ يوشك اليهود ان يدخلوا القرية.. واذا وجدوا هذه عندي قامت قيامتهم!

وتباطأت كلماته، وبدأ يحرك اصبعه في وجهي حركة تحذير:

ـ انت صغير، وتستطيع ان تخترق الحديقة. . اريدك ان تدفن هذا الصندوق في آخرها. . تحت شجرة التين الكبيرة. . ربما احتجنا له فيما بعد. .

سرني ان اشارك بعمل بطولي، فاندفعت الى خارج الباب، وعندما وجدت نفسي في الطريق الى الحديقة تملكني خوف رهيب، وحدثتني نفسي، وهي ترتجف، ان القي حملي الثقيل واقفل عائداً ادراجي، ولكنني تنبهت الى أن امي لا شك تطل من نافذتها وتشاهدني، كانت السماء شبه مضاءة بقنابل اللهب، وكانت الشرارات تلتمع في الافق راسمة خطوطاً مقطعة منتهية بضوء ساطع، وفي لحظات الصمت المخيفة التي كانت تتبع كل دفقة نار كانت تسمع اصوات ما تبقى من رجالنا تغني على طريقتها في المعارك غناء يبدو كأنه يتصاعد من عالم آخر، عالم يموت فيه الانسان وهو يعض على بقية الاغنية الحلوة، ثم يتمها هناك. . في السماء.

اخترقت الحديقة منحنياً، وكانت الطلقات تمس اعلى الشجر بصفير خافت، وكانت التينة العجوز تنتصب في آخر الحديقة. . عندما وصلتها شعرت بحماسة غامضة، وانشأت احفر في الارض مستعيناً بعودة صلبة، وفي اللحظة التي اسقطت فيها الصندوق بالحفرة، سمعت صيحة حادة في اعلى الشجرة. . وتملكني خوف اسقط ركبتي الى الأرض واخذت احدق مرتجفاً عبر الاغصان. . ثم شاهدتها، على ضوء اللهب المتصاعد في سماء قريتنا، تقف هناك وتحدق الي بعينين واسعتين غاضبتين اخفى اعلاهما انحدار الحاجب عليهما. . كان منقارها معقوفاً

كمنجل اسود ذي نصل عريض، ورأسها الكبير كصورة قلب رمزي مفلطح يتمايل بانتظام، كان ريشها مبتلاً بماء المطر الذي انهمر في أول الليل، وكان يومض في عيونها ذلك الغضب المشوب بخوف غريب، وكانت تحدق اليّ عبر الظلمة، تحديقاً متواصلاً لا يرتعش.

هدأ الرعب في صدري، وعدت الى عملي، حتى اذا اتممته انشأت انظر الى البومة بامعان، كانت ما تزال على وضعها الأول وكان ضوء القنابل المباغت يعطي لعيونها ظلالاً مرعبة، وبدت لي انها مصرة على وقوفها المتحدي، وانها سوف تبقى رغم كل الرصاص والموت.

عدت ادراجي الى البيت ببطء وهدوء فلقد زايلني كل خوف كنت احسه قبل ان أراها.. ثم لم املك إلا ان اتوقف هنيهة واعود الى النظر اليها، كانت ما تزال تحرك رأسها المفلطح بتحذير انساني عميق، وعلى ايماضة قنبلة بعيدة،شاهدت في عينيها ذلك التحدي الباسل، الخائف بعض الشيء ولكن الصامد لضغط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت.

اوشك الصبح ان يطلع وانا في وقفتي امام الصورة الملونة الملصوقة على الحائط العاري.. لقد انهكتني الذكرى ولكنني احسست بارتياح غريب فجأة، فهأنذا التقي البومة الغاضبة بعد غيبة طويلة! واين؟ في غرفة منعزلة مترامية تتنفس بوحدة مقيتة، بعيداً عن قريتي التي كانت تعبق برائحة البطولة والموت، وكانت البومة ما تزال ملصوقة على الحائط تحدق فيّ، عبر زمن متباعد وينحدر من منقارها المعقوف صرير حاد:

- ايه ايها المسكين.. هل تذكرتني الآن؟؟!

الكويت ـ ١٩٥٩

شيء لا يذهب

القطار اللاهث يصعد الطريق الجميل الى طهران. . . قال لنا مفتش القطار قبل ان نغادر عبدان ان علينا ان نحرس انفسنا، فالطريق طويل، واللصوص ينتهزون فرصة حلول الليل. . كي يمارسوا طريقتهم الخاصة في الحياة. .

قررت ان لا أنام. . فثمة كتاب ملوّن استطيع ان اقرأه في الليل. . . كتاب ألفه إنسان كان يحس اكثر من اللازم ،ويفهم اكثر من اللازم. . ومقصورتي في القطار متواضعة. . ايرانية جميلة تجلس في المقعد المقابل ما زالت تفحصني كي تكتشف فيّ اللص، لم تطمئن الي بعد. . . وعجوز، قد يكون ابوها، سقط في النوم قبل ان يخفق القطار بالرحلة الطويلة. . . وصديق هادىء يجلس الى جانبي يستعرض الطريق. . احسن ما في هذا الصديق انه لا يثرثر، واذا تكلم. . . فاللغة عربية. .

احسن طريقة كي احرس نفسي ومن معي، كما اوصانا المفتش السمين الذي يعرف سبع كلمات عربية، ان لا انام. . . لقد ابدى المفتش السمين قلقه علي. . فانا نحيل ذو وجه اصفر قد لا استطيع ان اسهر. . ولكنني قلت له إنني استطيع. . ولم افهم نكتته الايرانية التي ضحك لها طويلاً وهو يغمز مشيراً الى الحسناء. . . بينما احمرّ وجه الاخيرة. . وصعدت القاطرة مع والدها العجوز. .

قال لي صديقي ان وجه الايرانية لا يعجبه بتاتاً.. وانها تشبه الدكتور مصدق.. الذي لو كان امرأة لما كان بديعاً قط... وهكذا اعتقد صديقي أنه اذا سنح الحديث مع الحسناء فسيكون سيد الفرصة بلا غريم... بعد ان اطمأن الى انه اقنعني بملاحظته...

كنت في الحقيقة لا أرغب في الكلام.. كان الكتاب بديعاً.. طباعته انيقة، وصوره فذة.. وكلماته ليست سوى غطاء بئر سحيقة، اذا ما تمكنت من رفعه، فسوف لن ترى القاع البعيد مطلقاً..

كان الكتاب يحمل اسم عمر الخيام..

وقيمته بالنسبة لي هي انه اشير مرة الى رباعية فيه بالقلم الرصاص.. وضعتها الفتاة التي احببتها.. الرباعية تقول:

«آه ايها الحب.. لو استطيع انا وانت ان نتفق مع القدر..
كي ندمّر هذا الطابع الوحيد للعالم..
الى قطع صغيرة صغيرة..
ثم نعيد بناءه من جديد.. كما تشتهي قلوبنا..»

فتحت على تلك الصفحة دون ان أشعر.. فرائحة الطريق الطويل بدت مثيرة.. كانت الدائرة المرسومة حول الرباعية بالقلم الرصاص تكاد ان تختفي.. لقد مرت سنوات ثمان على اليوم الذي رسمت فيه هذه الدائرة.. ورغم ذلك فانا لن انساها مطلقاً..

لا اريد ان أنام في القاطرة.. لا لأحرس نفسي.. بل لاستعيد اللحظات الضبابية لما حدث قبل ثماني سنوات.. لقد بدأت العتمة تهبط.. وبدا لوهلة ان صوت العجلات المنتظمة.. موسيقى غريبة

تدفع بهذا الرأس المرهق.. الى الماضي..

***

اطمأنت الايرانية الحسناء اخيراً الى انني لست لصاً، او لست لصاً خطيراً على الأقل.. فاستسلمت لإغفاءة قلقة.. وبقي صديقي يحدق في الطريق المعتم دون ان يكف عن التحديق في الحسن النائم ايضاً..

كانت ليلى تطلب مني الا انظر اليها عندما تنام.. كانت تعتقد ان تقاطيع وجهها تكون صادقة عندما تفقد التحكم بها.. وهي لا تريد ان اعرف شعورها الحقيقي تجاهي.. تخاف ان اصبح مغروراً..

لم يكن اسمها ليلى.. كنت ادعوها ليلى لانها كانت تدعوني (قيساً)..

دارنا في حيفا لم تكن بعيدة عن دارها كثيراً.. خلف اول منعطف يقع على يمين دارنا، ليس عليك سوى ان تعدّ اربعةابواب، ثم تصعد بناية بيضاء الى الطابق الثالث، فستجد بيت ليلى لا محالة.. اذا لم تكن هذه البناية قد تهدمت بعد قصف حيفا، فلا شك ان ليلى ما زالت تسكن هناك..

لقد خرجت من حيفا قبل ان تسقط في يد اليهود.. ولم امسك بندقية في حياتي قط.. كان الشارع الطويل الذي ينصب فيه شارعنا هو ميداني الوحيد.. كنت مشهوراً في ذلك الشارع بأنني احدى علاماته، وكان شباب حيّنا يقولون: «اذا اردت ان ترى خيري، ففتش على اجمل فتاة في الشارع تجده خلفها..»

قالت لي ليلى بعد ان تعرفت عليها جيداً: انت رجل مائع يا خيري.. ولكنك لست هكذا في حقيقتك.. ولهذا اعتقد انني سأحبك.

كانت ليلى من نوع آخر.. ولكنني لم اكن اعرف ذلك في ايام تعارفنا.. كنت اعرف انها تخفي علي شيئاً ما.. ولكنني لم اكن اعلم ان تلك الفتاة الناعمة.. كانت تقوم بعمليات نسف، يعجز عن تصورها رجل متوسط الشجاعة. ولم تقل لي ذلك مطلقاً الا بعد الحادث المشؤوم الذي وقع.

في الحقيقة، انني لم اكن اعرف من هو عمر الخيام، وهي التي علمتني عنه اشياء كثيرة.. كنت اعجب بصور كتابه اكثر من اعجابي برباعياته التي كنت اعتقد انها هذيان انسان مريض بنزلة صدرية حادة..

الحب العنيف، الذي كانت تسميه دوامة تغوص في مستنقع، لم يستطع ان ينسيها القضية.. بل كانت تتعذب في سبيل ان تفهمني ان حياتنا ليست شيئاً.. وانها تبلغ ذروة قيمتها لو قدمت من اجل سعادة آلاف غيرنا...

وعندما فهمت اول رباعية من رباعيات الخيام، قلت لليلى ان هذا الرجل انسان انهزامي.. كنت سعيداً بهذا الاكتشاف، وقلت في ذات نفسي يومها ان ليلى ستكون فخورة بي... ولكنها لم تقم بما يدل على انها فخورة.. قالت لي وهي تشير الى الكتاب: «الانسان الذي يحس اكثر من اللازم، خير من الانسان الذي لا يحس بالمرة..»

هذا «الانسان الذي لا يحس بالمرة» استطعت ان افهم مؤخراً انه

انا. . ولم اغضب يوم اكتشفت ذلك. . اذ كانت قصتي مع ليلى قد انتهت يومذاك.

لكن ليلى تغيرت فيها بعد. . اذ انه في الوقت الذي كان يناضل فيه بعض الناس، ويتفرج «بعضٌ» آخر، كان هنالك «بعض» أخير يقوم بدور الخائن. .

وبواسطة هذا النوع الاخير من الناس، قبض اليهود على ليلى وهي تحاول القيام بعمل لم اتمكن من معرفته قط. وعادت بعد تسعة ايام كاملة. . ولم تستطع ان تحفظ حياتها إلا بعد مجموعة صدف لا احد يدري كيف حدثت.

اللحظة التي قابلتها فيها بعد عودتها من «الهادار» لم تزل راسخة في ذهني. . كنت أتوقع ان أراها تبكي، أو ترتجف. . إذ كنت قد سمعت من أفواه كثيرة قصص الليالي الفظيعة التي أمضتها في السجن. . ولكنني عندما رأيتها كانت هادئة هدوءاً مخيفاً. . لم يعد في عينيها أي بريق. . فقط وجه حزين صامت.

قالت لي بصوت منخفض هادىء:

ـ لقد ضاجعوني طوال تسعة أيام. .

لم استطع ان أقول شيئاً. . بل لقد خيّل الّي انها قالت: «لقد كنت أصلي طوال تسعة ايام». . شعرت ان الكلمة التي يمكن ان أواسيها بها شيء حقير. لا قرار لحقارتها ابداً. . وانتشلت الموقف بكلمة اخرى:

ـ يحسن بك ان تتركني. . انا امرأة مهترئة. .

●

كان القطار قد وصل الى محطة تقع في ثلث الطريق. . وبدأ يئز ازيزاً مزعجاً كي يقف. . صحت الايرانية الحسناء وبدأت تتزين من جديد، ما زال العجوز نائمًا، وصديقي يحدق بالطريق لقد مرت امامي اشجار صغيرة. . ثم بدأ رصيف المحطة مضاءً بانوار باهتة ينسحب أمام النافذة. . .

على الرصيف لمحت طفلا في السابعة من عمره تقريباً، كانت ملابسه ممزقة، ولكنها نظيفة. . كان يعد القاطرات باصبعه وهي تمر من امامه ببطء. . كان يعد باللغة العربية. .

اشار صديقي الى الطفل. . واصغينا معاً الى صوته الدقيق:

ـ ستة. . سبعة. . ثمانية. .

هز صديقي رأسه وقال باقتضاب:

ـ عربستان. . .

وتأسف قليلا، ثم هبط من القاطرة يبحث عن طعام.

الطفل الاسمر جميل الطلعة. . كان يبيع اشياء للتسلية، ولكنه بدا انه نسي وظيفته وهو يراقب القطار الطويل. . وكان يبدو منهكاً. . استدعيته الى نافذتي وسألته بالعربية:

ـ ماذا تبيع؟. .

قال وهو يتسلق النافذة:

ـ وانا عربي ايضاً. .

ـ ماذا يشتغل والدك؟

ـ انه يبيع الصحف هناك . .

●

بدأ القطار يخفق من جديد . . . الطعام الذي احضره صديقي لي ، أكلته الايرانية ، لم اكن ارغب في الاكل . . . كان الكتاب ما زال مفتوحاً على الرباعية التي يلفها خط يكاد يختفي بالقلم الرصاص .

وقرأت الرباعية من جديد ، وبصوت عال جعل الايرانية تتوقف عن المضغ :

«آه ايها الحب ، لو استطيع انا وانت ان نتفق مع القدر على تدمير هذا الطابع البائس الوحيد للعالم الى قطع صغيرة صغيرة . . ثم نعيد بناءه من جديد كما تشتهي قلوبنا . . »

لم اكن قط استحق ليلى . . كانت احسن مني بكثير، كنت جباناً ، اخاف من الموت . . .ورفضت ان احمل سلاحاً كي ادافع عن حيفا . . كنت في رأس الناقورة عندما قالوا ان حيفا سقطت في يد اليهود ، ولا ادري لماذا تذكرت لحظتذاك جملة قالتها ليلى قبل ان اغادر حيفا :

ـ انني لا استطيع ان انسى التسعة أيام القاسية . . ولكني اريد ان استمر في . . الدفاع عن حيفا . . انا اعرف انني قدمت شيئاً أكثر من حياتي . . ولكنني اريد ان اقدم حياتي نفسها فهذا افضل . باستطاعتك ان تغادر حيفا ، ان تهرب من حيفا . . ولكنك في يوم سيأتي لا بد لك من ان تصحو . وتكتشف . . وتندم . .

ليلى الحزينة.. البائسة... بقيت في حيفا ورفضت ان تخرج منها.. وقالت لجيرانها عندما اتوا ليجروها معهم انها فقدت كل شيء ولا تريد ان تفقد ماضيها الجميل في حيفا الجميلة... تريد ان يبقى لها شيء لا يذهب...

لقد مضى زمن طويل على اليوم الذي خرجت فيه من حيفا.. وأشعر اليوم انني لم أكن استحق ليلى مطلقاً.. بل لم أكن استحق حيفا نفسها.. لماذا اهتمت هذه الانسانة النبيلة بانسان جبان مثلي؟.. لماذا تلاحقني هذه الانسانة الرائعة طوال ثماني سنوات؟ لماذا تلح على رأسي كما تلح صفارة القطار قبل ان يدور حول المنعطف؟

●

صحا العجوز من نومه الطويل.. وحدق بعيون ضيقة كأنها شقوق ارض جافة بانحاء القاطرة.. وابتسم في وجهي ثم هتف بعربية مكسرة وهو يشير الى الكتاب الملقى على ركبتي:

- عمر الخيام؟

هززت برأسي وتركته يلتقط الكتاب ويتفرج على صوره..

كان رفاقي يتهمونني دائماً بأنني من عشاق الخيالات. وعندما قلت لهم وانا في الكويت انني أريد ان اذهب لايران كي أضع باقة ورد على قبر الخيام.. ضحكوا جميعهم وقالوا:

- «انه يريد ان يعيش تجربة عنيفة يوهم نفسه فيها انه يحب!»

شعرت بأنني انسان لا يعيش على ارضه، إنسان كان يجب ان يبقى

طفلاً كما كانت تقول ليلى . . وبدا لي في لحظة ان ماضيّ شيء مخجل في الحقيقة . . ثماني سنوات اجتر ذكرى ليلى كأنها إنسانة صنعتها فقط لأذكرها . . تراها كانت موجودة حقاً انسانة اسمها ليلى؟ أم انني صنعتها ثم صدقتها؟

فتح صديقي نافذة القاطرة . . فصفع وجهي هواء بارد، وشعرت باللحظة نفسها ان ليلى لا يهمها مطلقاً ان اضع باقة ورد سخيفة على قبر عمر الخيام . . كي أوهم نفسي بأنني ضحية حب عنيف . .

لماذا اصر على الاحتفاظ بكتاب الخيام؟ ان احداً لا يعرف الحقيقة . . تراني اريد من الكتاب ان يوهم الآخرين بانني مازلت مرتبطاً بحيفا؟

اعاد العجوز كتاب عمر الخيام شاكراً، وحينما سقط الكتاب على ركبتي انفتحت صفحاته على الرباعية المحاطة بالخط الباهت لقلم رصاص قديم . .

«لم تستطع ليلى ان تغيرني . .» شعرت هذا بوضوح الآن . . انسان لا فائدة منه . هذا كل شيء . . . باقة ورد على ضريح انسان ميت . . شيء يذهب، لقد قالت لهم انها تريد ان يبقى لها شيء لا يذهب . .

ازت العجلات وهي تدور حول منعطف واسع، وصفر القطار . . ثمة مقبرة في الافق، وشواهد القبور البيضاء مغروسة في التراب كالقدر . . باردة، قاسية، ولا تذبل . . ترى، هل يوجد فوق قبرها رخامة؟

دمشق ـ ١٩٥٨

منتصف ايار

عزيزي ابراهيم

لست ادري لمن سوف ارسل هذه الرسالة. . لقد كان عهدي لك ان احمل الى قبرك في كل منتصف ايار بعض ازهار الحنّون، فأنثرها فوقه. . وها قد وصل منتصف ايار دون ان أجد ولو زهرة حنون واحدة. . ولو وجدتها. . فكيف لي ان اصل الى قبرك كي اعطيكها؟. . لقد مضت اثنتا عشرة سنة. . واعتقدانك بعدت كثيراً عن كل شيء. . فكما انت تغور الى أعماق الأرض وتتفتت، فأنت ايضاً تغور في ذاكرتنا، وتتلاشى. ملامحك، حتى ملامحك، لم اعد اذكرها جيدا. . اما صوتك فلست اعرف كيف كان. . عيونك، لم اعد اذكر كيف كان بريقها. . ويصعب عليّ كثيراً ان اتصور حركتك. . كل الذي بقي منك في ذهني: جسد جامد. . كفاه فوق صدره. . وخيط رفيع من الدم يصل بين طرف شفتيه واذنه، واذكر ـ بوضوح هنا ـ كيف حملوك وألقوك في الحفرة بملابسك كلها. . ثم أهالوا التراب، بينما مزق صمود رفاقك صوت نحيب مجروح اخذ يعلو خلفنا شيئاً فشيئاً، ثم صمت. .

والسؤال الان هو: لماذا اكتب لك؟. . الم يكن الاجدر بي، وقد فشلت في حمل ازهار الحنون الى قبرك. . ان استمر في الصمت الذي بدأ منذ اثنتي عشرة سنة؟ يبدو لي انه من المستحيل ان استمر في صمتي. . . ان منتصف ايار يضغط على صدري وكأنه قدر مجنون، اخطأ ذات مرة. . فقتلك بدل ان يقتلني. .

ان خيوط القصة بدأت تنحل في رأسي. . واخشى ان انساها. . هل تصدق؟. اني ـ حقاً ـ اخشى ان انساها! وربما نسيتها انت. . فما الذي يعنيك منها الان؟. . . ولكني اريد ان اساعدك، واساعد نفسي في نسج خيوطها من جديد.

معظم القصص ليس لها بداية. . ولكن الغريب ان قصتنا معا لها بداية واضحة. . بل اكاد اقسم ان بدايتها من الوضوح بحيث تستطيع ان تعتبرها فصلا مستقلا عن جريان بقية احداث حياتنا. .

كان الوقت بعيد العصر بقليل، وقد وقفنا ـ انت وانا ـ الى جانب الحجر الكبير الذي كان يشكل مقعداً امام بيت جدك. . . كنا بدأنا التعلم على استعمال الاسلحة. . وحتى تلك اللحظة، كانت اهدافنا علب الاطعمة المحفوظة الفارغة. . وصفائح الزيت العتيقة. . واذا لم تخني ذاكرتي استطيع ان اقول اننا استعملنا «ضوء الكاز» كهدف لرصاصنا مرتين او ثلاث.

كان الوقت عصراً. . نعم، سوف اؤكد على هذا مرة اخرى لأن الصورة لا يمكن ان تكتمل عناصرها إلا اذا دخل اليها ضوء العصر. . لقد وقفنا الى جانب الحجر الكبير، ثم سمعت صوتك:

ـ ألست تريد الانتقام؟

وتبعت سؤالك سلسلة من الضحكات القصيرة قبل ان اسأل بدوري:

ـ «مم»؟

ورفعت اصبعك تجاه الحائط المقابل. . واشرت الى شيء ما ثم قلت

والضحكة ما زالت تمسح كلماتك:

ـ من القط الذي سرق زوج حمام من البرج..

وضحكت انا الآخر.. وتذكرت كيف استطاع هذا القط المنقط الملعون ان يصل الى برج الحمام في الحديقة في ليلتين متتاليتين ويسرق منه زوجاً من اجود الحمام الذي يحرص جدي، ونحن، على تربيته.. وقبل ان اصل الى قرار سمعتك مرة اخرى..

ـ سوف اقتله انا اذا خانتك شجاعتك..

ورفعت بندقيتك الى كتفك.. واطلقتها، ومن خلال الدخان ذي الرائحة الغريبة، شاهدنا القط المسكين يقفز مذعوراً الى الوراء.. ثم يطلق ساقيه للريح الى سور الحديقة المجاورة، ويقف فوقه متحفزاً يحدق بعيون مدهوشة الى حيث خدشت الرصاصة جزءا من الحائط العتيق.. لست أدري اي شيطان جعلني اهتف:

ـ اخطأته.. سوف اجرب حظي..

انني اذكر كيف صوبت الى رأسه.. وحينما رأيته مقعياً على السور من خلال انفراج علامة التصويب في مقدمة بندقيتي، شعرت برجفة.. واضطرب التصويب لفترة.. كانت عيونه تحدق ـ ما تزال ـ حواليه بجزع ودهشة.. بينما اخذ ذيله يضرب الأرض بانتظام، واذناه تنتصبان وتميلان بحثاً عن الخطر.. وفي لحظة ثانية رأيته تماماً في منتصف علامة التصويب.. فضغطت الزناد.. لقد لطمته الرصاصة في وجهه.. فانقلب وتشنجت ارجله في الهواء تتحرك راجفة.. ثم هوى الى جنبه واخذ الدم يتدفق..

وقدتني اليه، وقلبته بمقدمة سلاحك. . وهتفت. .

ـ اصابة رائعة. . في منتصف رأسه. . لقد قطعت سلسلة افكاره. .

ولكني كنت قد بدأت اتقيأ. . ثم لزمت الفراش اكثر من اسبوعين. .

وحينما زرتني انت بعد فترة. . سألتني ضاحكاً:

ـ ماذا؟ القط المنقط اللص. . يجعلك تذوي هكذا؟. شيء مضحك!. الم تعد نفسك لخوض معارك نقتل فيها رجالا لا قططاً؟

شعرت بالعار. . ولست ادري كيف تكونت الكذبة تلك الساعة.

ـ القط؟ انت مجنون. . لقد كنت اقتل قططا بالحجارة وانا طفل!. . كل ما هنالك ان كتف البندقية انزلق بعد الاطلاق، فلمس حلقي. . وهذا هو السبب الذي جعلني اتقيأ. . ثم اني كنت مريضاً من قبل. .

هل انطلت عليك الكذبة؟ لست ادري الى الان. . ولكن الذي طمأنني يومها، انك عدت الي في المساء. . وهمست في اذني ان اعد نفسي لهجوم ما. . خلال يومين. . .

وفي السيارة التي حملتنا الى المستعمرة المجاورة. . كنت تغني كالعادة. . بينما كنت ما ازال اعاني من وطأة الحادث. . ولكزتني فجأة ملفتاً نظري الى الحقول وقد بدأ ايار يعطيها لون حياة جديدة:

ـ هذا الحنّون. . لقد كنا نفتش داخله عن حشرات ملونة لطيفة. . وكنا نقطع الف زهرة حنّون حمراء كي نجد حشرة واحدة. . يا سلام. . سوف. . اكون سعيداً لو عاهدتني على ان تحمل الى قبري في كل ايار

باقة حنّون.. اتعاهدني؟..

- انت سخيف. ولكن اذا كان عهدي سوف يسكتك فأنني اعاهدك..

ماتت الضحكة على شفتيك، وضممت بندقيتك الى صدرك، وقلت بصوت واه، ولكنه عميق:

- شكراً...

لقد نزلنا، عند الظهر، في حقول المستعمرة.. كانت الخطة جريئة، ولكنها ممكنة.. احتلال البيوت المتطرفة من المستعمرة ثم نسفها.. والعودة الى بلدتنا من جديد..

ولكن الذي حدث كان غير ذلك.. لقد فاجأنا اليهود في حقولهم، ونشبت معركة ضارية.. كنت الى جانبك.. وكنت اطلق نيران سلاحي كيفما اتفق، فلسنا نرى احداً نصوب عليه.. وكنا - خلال ذلك - نستمر في الزحف بين الاشواك والزرع.. هل كنت خائفاً يومها؟ لست اذكر الان.. ولكن ذلك اليهودي الذي انتصب امامنا واقفاً على حين فجأة، شل تفكيري.. كان يحمل قنبلة يدوية القاها فوقنا.. وسمعت صوتك والدخان يكاد يعمينا:

- اقتله.. لقد علق رصاص مشطي...

وانجلى الدخان.. كان ما يزال واقفاً هناك يحمل قنبلة ثانية ويفتش بين الزرع عنا.. ورأيته من خلال علامة التصويب يقف هناك.. بعيون مذعورة.. ومرت لحظات دون ان يستطيع اصبعي شد الزناد.. كنت ارتجف.. وبقي الهدف واقفاً في منطقة تصويبي.. كنت اشاهده

من خلال اداة التصويب. . ومن خلال هذه الاداة، شاهدته يكتشفك ويلقي فوقك بقنبلته الثانية، ويولي الادبار. .

وهكذا ارجعناك الى بلدتنا حيث دفنوك بكامل ملابسك كما يجب ان يدفن الشهداء. وكانت امك تبكي خلف رفاقك. . . بينما اخذت انا - في غمرة عاري - ازرع فوق التراب الندي باقة حنّون جمعناها في طريق عودتنا.

لقد مر اثنا عشر عاما على ذلك اليوم. . . وانا ملاحق من عاري. . كل ايار يثقل صدري ككابوس لا يرحم. .

والسؤال الذي يجأر في رأسي. . هو: لماذا اذكرك الآن. . وأكتب لك. . أما كان الأجدر بي ان استمر في صمتي؟؟

كلا. . اني لا استطيع. . الايام تمر. . وانت تغور في الرمل. وأخشى ان أنساك. . اني لا اريد ان أنسى، رغم كل العذاب الذي يحمله التذكر. فقد يستطيع هذا العذاب ان يجعلني أحسّ يوماً بمدى ما هو ضروري ان أعود الى قبرك. . فأنثر فوقه بعض ازهار الحنّون. .

لست أعرف مبلغ تطوري الان. . هل استطيع ان أقتل يهودياً دون ان ارتجف؟ لقد كبرت. وجعلتني الخيمة أشد خشونة. . ولكن كل هذا لا يعطيني يقيناً. .

يقيني الوحيد. . هو اني أشعر بالعار ملتصقاً بي حتى عظمي. . هل يكفي هذا؟؟ اعتقد انه يكفي. . فالقط الذي قتلته لم يفعل سوى انه سرق زوج حمام كي يأكله. . وكان السبب هو جوعه حتماً. . اما الآن فانا بازاء جوع الاف من الرجال والنساء. . أقف معهم أواجه لصاً سرق منا كل شيء. .

أيكون هذا هو السبب الذي جعلني انفك عن صمتي. . كي أزيد التصاقي بك؟. . سوف تغفر لي اعترافي. . لقد اكتشفت انا ـ كما يجب ان تكون اكتشفت انت منذ بعيد ـ كم هو ضروري ان يموت بعض الناس. . من أجل ان يعيش البعض الآخر. . انها حكمة قديمة. . أهمّ ما فيها الآن. . انني أعيشها.

الكويت ١٩٦٠

كعك على الرصيف

اتكون محض مصادفة غريبة انني التقيته ، الآن، في المكان نفسه الذي شاهدته فيه لاول مرة؟

لقد كان مقرفصاً هناك، كأنه لم يزل كذلك حتى اليوم: بشعره الاسود الخشن، وعينيه اللامعتين ببريق رغبة يائسة، مكباً على صندوقه الخشبي يحدق الى لمعان حذاء باذخ. . لقد استطاعت صورته ان تحفر نفسها في عظم رأسي قبل عام واحد، حينما رأيته في تلك الزاوية بالذات، لا لشيء غير عادي، سوى انني - انا نفسي - كنت احتل هذه الزاوية قبل عشر سنوات، حينما كانت المحنة على اشدها، وكانت طريقتي في مسح الاحذية تشابه طريقته الى حد بعيد، كان الحذاء بالنسبة لي هو كل الكون: رأسه وكعبه قطبان باردان، وبين هذين القطبين كانت تتلخص دنياي.

وقبل عام، حين مررت به، قاءت شفتاه عرضاً آلياً دون ان تنظر عيناه الى الحذاء:

- استطيع ان احوله الى مرآة، يا سيدي. .

وبدافع من رغبة خاصة، تعوضني عن شهور طويلة من الأسى، ركزت قدماً على حدبة الصندوق حيث تيسر لي ان اشاهد خطاً عريضاً من العرق يبلل ظهر قميصه الازرق المتسخ، وكانت عضلات كتفيه

الضامرة الصغيرة تنقبض وتنبسط، وكان رأسه يهتز بانتظام . .

ـ هذا حذاء رخيص . .

لم احس الاهانة على الاطلاق، فلقد كان شعوري حينما كنت اشاهد حذاء رخيصاً يشابه شعوره، ولكنني لم اكن اعبر عنه بهذه السذاجة، كان الحذاء الرخيص يشعرني باقتراب غامض بيني وبين العالم . . ورغم ذلك، فلقد رغبت في تغيير الحديث . .

ـ كم عمرك؟

ـ احدى عشرة سنة . .

ـ فلسطيني؟

هز رأسه فوق الحذاء، دون ان يجيب، واحسست بأنه يخفي شعوراً بخجل صغير . .

ـ اين تسكن؟

ـ في المخيم .

ـ مع ابيك؟

ـ لا ، مع امي . .

ـ انت طالب، اليس كذلك؟

ـ نعم .

ونقر بابهامه على النعل، ثم طالعني بعينين صافيتين، باسطاً كفه الصغيرة تجاهي، واحسست بخيط رفيع من الاسى في حنجرتي،

وتنازعني شعوران حادان: هل اعطيه اجرته فحسب؟ ام ازيد عليها؟ كنت حينما اعطى اجري حسب استحقاقي احس شرف عملي، ولكنني حين كنت اوهب هبة ما كنت اقبلها وشعور بالاهانة يتراكم فوق سعادتي في انني كسبت اكثر..

لقد طواني المنعطف مبتعداً عن نظراته وهي تلسع ظهري ذلك انني اعطيته استحقاقه فحسب... وحينما نظرت خلفي كان قد صرف نظره عني وتابع تحديقه الى ارض الشارع راغباً في اصطياد حذاء آخر...

ولكن صلتي «بحميد» لم تنته بانتهاء هذا المنظر.. فبعد اقل من شهر واحد عينت مدرساً في مدارس اللاجئين، وحين دخلت الى الصف لأول مرة شاهدته جالساً في المقعد الاول.. كان شعره الأسود الخشن اقصر من ذي قبل، وكان قميصه المهترىء مجرد محاولة فاشلة لستر عريه.. وكانت عيونه ما زالت تلتمع ببريق رغبة يائسة..

لقد سرني انه لم يعرفني، ورغم أنه من الطبيعي ان ينسى ماسح الاحذية زبائنه العابرين فلقد كنت اخشى من كل قلبي ان يتذكرني، ولو فعل لكان وجودي في الصف حرجاً لا مهرب منه.. وطوال درسي الأول كنت احاول عبثاً ان انتزع بصري عن وجهه المكتسي بتحفز مشوب بقلق صغير.. لقد كان الصف كله مزيجاً من عدد كبير من اشباه حميد، صغار ينتظرون بفارغ الصبر صوت الجرس الأخير كي يشدوا انفسهم الى ازقة مترامية في مجاهل دمشق الكبيرة يصارعون الغروب من أجل ان يكسبوا العشاء... كانوا ينتظرون الجرس بتوق جائع كي يتوزعوا تحت السماء الرمادية الباردة، كل منهم يمارس طريقته الخاصة في الحياة... وكانوا يعودون، اذ يهبط الليل الى خيامهم او الى بيوت

الطين حيث تتكدس العائلة صامتة طوال الليل الا من اصوات السعال المخنوقة. . كنت احس بأنني ادرّس اطفالا اكبر من اعمارهم . . اكبر بكثير، كل واحد منهم كان شرراً انبعث من احتكاكه القاسي بالحياة القاسية. . وكانت عيونهم جميعهم تنوس في الصف كنوافذ صغيرة لعوالم مجهولة، ملونة بالوان قاتمة، وكانت شفاههم الرقيقة تنطبق باحكام كأنها ترفض ان تنفرج خوف ان تنطلق شتائم لا حصر لها دون ان يستطيعوا ردها. . كان الصف اذن عالماً صغيراً. . عالماً من بؤس مكوم ولكنه بؤس بطل. . وكنت احس بينهم بشيء من الغربة. . واورثني هذا الاحساس رغبة جامحة في ان احاول الوصول الى قلوبهم قدر استطاعتي. .

كان حميد طفلا متوسط الذكاء، ولكنه لم يكن يدرس بالمرة. . وكنت احاول باتصال ان ادفعه ليدرس ولكن هذا الدفع لم يكن يجدي. .

- حميد، لا تقل لي انك تفتح كتاباً في بيتك. . انك لا تدرس على الاطلاق. .

- نعم يا استاذ.

- لماذا لا تدرس؟

- لانني اشتغل. . .

- تشتغل حتى متى؟

وتظل العيون الواسعة الحزينة فيما تأخذ الاصابع الصغيرة تدوّر باضطراب طاقية متسخة. . ثم يهمس صوت بائس:

ـ حتى منتصف الليل. . استاذ. . ان الخارجين من دور السينما يشترون كعكي دائماً اذا انتظرتهم. .

ـ كعك؟ انت تبيع كعكاً؟

ويرد صوته بخجل هامس:

ـ نعم يا استاذ. . كعك. .

ـ لقد كنت أظن. . لا، اذهب الى مكانك. . اذهب!

وطوال تلك الليلة، كنت اتصور المسكين يدور حافياً في شوارع دمشق النظيفة ينتظر خروج رواد السينما. . كنا في تشرين، وكانت السماء تمطر في تلك الليلة. . وتصورته واقفاً في زاوية ما راعشاً كريشة في زوبعة. . ضاماً كتفيه قدر جهده الى بعضهما، داساً كفيه في مزق ثوبه محدقاً الى صحن الكعك أمامه. . منتظراً شخصاً ما يخرج من القاعة جائعاً كي يشتري كعكة. . شخصين. . ثلاثة. . ويتسع فمه بابتسامة يائسة، ويحدق الى ميازيب تشرين من جديد.

وفي اليوم التالي. . شاهدته في الصف، كان النعاس يأكل عيونه، وكانت رأسه تنحدر على حين فجأة الى صدره، ثم ينهضها بعجز.

ـ أتريد ان تنام يا حميد؟

ـ كلا، يا استاذ. .

ـ اذا اردت ان تنام فلسوف آخذك الى غرفة المدرسين. .

ـ كلا يا استاذ. .

ولكنه كان يبدو منهكاً بصورة حادة، وهكذا، اقتدته الى غرفة المدرسين، كانت غرفة عارية الا من صورة رسمها مدرس الرسم الفاشل ببقايا ألوان الطلبة، وكانت المقاعد الثقيلة منثورة تحت الجدران الرطبة وحول مائدة صغيرة تكدست عليها اكوام الدفاتر والكتب، لقد وقف حميد في باب الغرفة، مستشعراً، كما يبدو، احساساً غريباً، كان قلقاً بعض الشيء، وكانت طاقيته تدور بين اصابعه الصغيرة، وعيونه تتناوب التحديق اليّ، والى الغرفة..

- نم على اي مقعد، سوف نضع حطباً في المدفأة.

تحرك بطيئاً الى المقعد القريب، وجلس فوقه نصف جلسة، فيما التمعت عيناه بسعادة الدفء.

- هل بعت كثيراً من الكعك ليلة امس؟

- ليس كثيراً..

كان في صوته رنة اسى عميق، وكان وجهه يرتجف:

- لماذا؟

- نمت، نمت اثناء انتظاري انتهاء الفيلم، وحينما صحوت كان كل شيء قد انتهى.

- نم الآن، سوف اعود الى الصف.

ولكنني لم اعرف كيف اتممت درسي، كنت احس بقلق غريب، وكنت اخشى ان انفجر بالبكاء امام الطلبة.

وفي الفرصة كان حميد يغط في نوم عميق، وكان انفه الصغير ما زال مزرقاً من فعل البرد الا ان الدم كان قد بدأ يرد الى وجنتيه لم يسأل احد من الاساتذة اي سؤال، اذ ان حوادث كثيرة من هذا الطراز كانت تحدث كل يوم، واكتفى الجميع برشف الشاي صامتين.

وطوال الايام التالية كنت ابحث عن طريقة ادخل فيها الى حياة حميد دون ان يمسه فضولي، وكانت هذه العملية صعبة للغاية، اذ ان كل طالب في مدرسة النازحين كان يصر على الاحتفاظ بمأساته الخاصة، وضمها بعنف في صدره.. كأنما كان هنالك شبه اتفاق مشترك على ان هذا واجب وضروري..

ان الاشياء الصغيرة، حينما تحدث في وقتها، يكون لها معنى اكبر منها، اقصد ان هنالك بداية صغيرة لكل حادث كبير.. ففي احد الايام اتى اخي الأصغر الى المدرسة يحمل طعام الغداء لي، وحينما اعلمني خادم المدرسة بذلك، ارسلت حميداً اليه كي يأخذ منه اوعية الاكل. وعندما عاد حميد احسست بانه قد اهين بكيفية او باخرى، ولذلك طلبت منه ان يراجعني في غرفة المدرسين، اثناء فرصة الغداء.

دخل حميد غرفة المدرسين قلقاً كالعادة، كنت وحيداً، ورغم ذلك فان قلقه لم يبارحه، كانت اصابعه تدوّر طاقيته باضطراب، وكانت عيونه تلتمع كعادتها..

- حميد، هل اعجبك اخي؟

- انه يشبه اخي..

لم اكن اتصور ان الموضوع سوف يطرق بهذه السرعة.. ولذلك فلقد

سألت متعجباً:

ـ اخوك؟ انني اعرف ان لك اختين فحسب..

ـ نعم. ولكن اخي مات..

ـ مات؟..

احسست باضطراب انا الاخر، فهذا الصغير يضم صدره الضامر على اسرار كبيرة..

ـ كان اصغر منك.. ها؟

ـ كلا.. اكبر مني..

ـ كيف مات؟

ولكن حميد لم يجب، وشاهدته يغالب دمعاً غلبه في نهاية الامر، وامتلأ وجهه الصغير بدمع غزير اخذ يمسحه خجلا بعض الشيء..

ـ حسناً.. لا تتكلم.. أتعرف ان اخي انا الآخر مات؟

ـ صحيح؟.

ـ نعم.. لقد دهسته سيارة كبيرة..

كنت اكذب.. ولكنني رغبت في ان اشارك احزان الصغير بكيفية ما.. وشعرت بان كذبتي قد اخذت طريقها السوي الى رأسه اذ التمعت عيناه بأسى مفاجىء ومضى يحكي ببطء:

ـ اخي لم تدهسه سيارة.. لقد كان يعمل خادماً في الطابق الرابع.. وكان سعيداً..

كان حميد يستعين بذراعيه كي يوضح كلامه وكانت دموعه تنساب دون ان يشعر. .

ـ لقد اطل في قفص المصعد فقطع المصعد رأسه وهو يهبط. .

ـ مات؟

كان السؤال سخيفاً، ورغم ذلك فلقد احسست بضرورته من اجل ان اهدهد قشعريرة مفاجئة تكلبت في جسدي. . وهز حميد رأسه ثم سأل فجأة:

ـ هل قطعت السيارة رأس اخيك؟

ـ اخي؟ آه! نعم. . نعم لقد قطعت رأسه. .

ـ هل حزنت عليه كثيراً؟

ـ نعم. .

ـ هل تبكي عندما تتذكره؟

ـ ليس كثيراً. .

ـ قل لي يا استاذ. . هل لك اب؟

ـ طبعاً، اعني نعم، لماذا؟
خطا نحوي وسأل بلهفة راعشة:

ـ هل هو بخير؟

ـ نعم. . لماذا؟. .

تكهفت عيناه بأسى فاجع وشعرت بأن للمأساة ذيولا تعصر رئتيه. . ولكنني كنت على يقين بان حميداً سوف لن يجيب على اي سؤ ال. . . لقد انطبقت شفتاه باحكام مصر. . ويمم عينيه شطر الحائط العاري. . . كان بنطاله قصيراً ممزوقاً وكان قميصه الازرق متسخاً مهترئاً. . . وحين شاهدني اطالعه باستغراب لملم نفسه واحمر وجهه قليلا. . . وازدادت سرعة الطاقية الصوفية الدوارة بين اصابعه.

لقد بدأت مشكلة حميد تدخل شيئاً فشيئاً فيما بعد، الى حياتي. كنت لا استطيع على الاطلاق ان أكون عابراً في حياته، متفرجاً الى مأساته، ومن بين عشرات المآسي التي حفل بها صفي لم تجتذبني سوى عيون حميد البائسة اليائسة. . صرت أفكر فيه على الدوام. وكثيراً ما كنت أقرر ان ابدأ بنفسي، خارج المدرسة، بحثاً متصلاً حول حياة حميد. . بل لقد فكرت يوماً في ان أبحث عن طريقة تجعل أمر مساعدته مالياً شيئاً طبيعياً لا يحمل رائحة الاهانة. . ولكن كل شيء كان يدور مجهداً حوالي، وكان ينتهي الى الفشل أمام العيون التي تحتوي، الى جنب الأسى، شيئاً كثيراً من الكبرياء والتعالي. . .

إلا ان علاقتي بقضية حميد أخذت تخفت شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من الاحداث الصغيرة جعلتني احمل نقمة غريبة على هذا المخلوق الصغير، المعقد، المكوّم فوق اسرار، لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تبدأ إلا لتستمر. . فلقد حدث ذات يوم ان شكا الي حميد استاذاً زميلاً اهانه اهانة بالغة. ولقد قال حميد، يومها، وهو يحدق اليّ مكشراً بعض الشيء:

- انني يتيم. . والا لكنت استدعيت ابي. .

- ها. . ابوك ميت؟. .

قال بخجل وهو يطأطىء رأسه:

ـ نعم..

ـ لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟

لم يجب حميد على سؤالي واكتفى بأن هزّ رأسه باتصال ، وصمت:

ـ انت الذي تصرف على عائلتك اذن؟

ـ نعم.. انا الذي اصرف.. إن امي تكسب قليلاً من تنظيف مخازن وكالة الغوث.. ولكنني انا اكسب أكثر..

وصمت حميد قليلاً ثم اندفع قائلاً وهو يبسط كفيه الصغيرتين مستعيناً بحركتهما:

ـ انني اشتري كل ثلاث كعكات بعشرة قروش.. وأبيع الكعكة الواحدة بخمسة قروش..

ـ اما زلت تنام وانت تنتظر خروج رواد السينما؟..

ـ كلا.. لقد تعودت السهر..

هل من الضروري ان يعترف المدرس، بين الفينة والاخرى، بانه يلجأ الى الغش كي يعين طالباً مسكيناً على النجاح؟. لقد كنت انا افعل ذلك.. كانت علامات حميد جيدة على الدوام رغم انه كان متوسط المستوى، ولكنني لم اشعر قط بعدالة علامتي بقدر ما كنت اشعر هذه العدالة حينما كنت اسجل علامات حميد.. ولكن القضية لا تتحرج هنا على الاطلاق، لقد بدأت تتحرج فقط حينما اخذت أشك في سلوك هذا «الحميد» وفي كلامه لي، بل وفي دمعه ايضاً..

ففي عصر يوم قائظ من ايام نهاية العام نقل اليّ تلاميذ الصف ان خادم المدرسة ضرب حميداً ضرباً قاسياً حينما كان يحاول عبور حاجز المدرسة هارباً، وحينما استدعيت الخادم الى غرفة المدرسين كي اعاتبه وجدتني اواجه رجلا يتمتع بقناعة غريبة بأنه انما فعل عين الصواب، ضارباً عرض الحائط بكل مفاهيم التربية النموذجية التي حاولت ان اوضحها له.. حينذاك لم اجد بداً من ان اواجهه بمنطقه الخاص:

- اليس حراماً يا ابا سليم ان تضرب يتيماً؟

جأر ابو سليم ماداً رأسه تجاهي وقد عقد ذراعيه على صدره:

- يتيم؟ إن اباه لوح، اكتافه تملأ الدنيا..

- حميد له أب؟

سألت متعجباً.. فيما اتاني نفس الجواب مكرراً بصلف:

- إن اباه لوح.. تملأ اكتافه الدنيا...

احسست باهانة تصفع صدري.. وساءني ان يكون الصغير قد بنى عطفي عليه فوق اكاذيب منحطة.. شعرت بأنني لم اكن سوى مغفل طيب القلب وان كل العلامات التي جعلتها تخطو من فوق ضميري بارتياح تضحك في وجهي الآن بشراسة..

وطوال الطريق الى بيتي كانت كلمات ابي سليم تعرك رأسي ويدوي صداها في حنجرتي.. وكنت احدث نفسي زاعماً لها ان اولئك الملاعين الصغار هم في الحقيقة اكبر بكثير من اعمارهم وان الخطأ كان في انني عاملتهم على انهم اطفال فحسب، لقد تغاضيت عن كونهم رجالا

صغاراً يستطيعون الوصول الى ما يريدون باية طريقة تخطر على بالهم . . وان لعبة حميد على استاذه نيست في نظره سوى لعبة بائع كعك على زبون نصف سكران تنتهي بشراء كعكتين، او كعكة بسعر كعكتين . .

ورغم هذا الكلام، فانني لم استطع ان اتخلص من شعوري الحاد بأنني أهنت على يد حميد إهانة بالغة، وأخذ تفكيري يسير في الطريق الذي يؤدي الى ايجاد انتقام ما . . انني اعتقد الآن بأن القضية تافهة، وان تفكيري كان أتفه، ولكنني لم أكن ارضى لحظتذاك بأن أتنازل قيد أنملة واحدة عن حقي في ان امسح الاهانة . .

ولكن الذي حدث فيما بعد لم يستطع ان يهدهد غضبي، بل على العكس، لقد زاده اواراً على اوار . . واستشعرت بعدها ألماً ممضاً يعتصر صدري بلا هوادة . . فلقد قصّ علي طالب ثرثار كيف ماتت ام حميد قبل شهور طويلة بعد ان وضعت طفلة ميتة . . ووجدتني اغوص في دوامة من الاكاذيب كوّمها حولي هذا الحميد الصغير ببراعة لا تكاد تصدق . .

اتت نهاية احتمالي في غداة يوم قائظ، كنت عائداً فيه من المدرسة فرأيته فجأة بعد غياب طويل . .

أتكون محض مصادفة غريبة انني التقيت به في نفس المكان الذي شاهدته فيه لاول مرة؟

كان مقرفصاً هناك خلف صندوقه الخشبي الملوث بالدهان، يحدق الى الشارع راغباً في اصطياد حذاء ما . . . فيما وقفت انا نصف مصعوق اكاد لا اصدق انني ارى بائع الكعك المزعوم، واحسست بالاهانة

تجترح حلقي، وحينما استطعت ان اميّز ما كنت افعل وجدتني ممسكاً بياقة الصغير اهزه بلا هوادة.. وافح باتصال:

- ايها الكذاب..

رفع الصغير عيونه تجاهي مفتوحة حتى اقصاها، ممزوجاً لمعانها بمعنى من معاني الخوف المفاجىء، ورأيت شفتيه تتحركان دون ان تستطيعا النطق بينما فشلت محاولته الصغيرة للخلاص من بين قبضتي..

وعدت اكرر وقد احسست بشيء يهوي في صدري امام الصمت اليائس:

- أيها الكذاب...

- استاذ..

قالها باسترخاء رافعاً اصبعه بصورة آلية ونظر حواليه باضطراب ثم اعترف راجفاً:

- نعم يا استاذ انا كذاب، ولكن اسمع..

- لا اريد ان أسمع شيئاً..

ضاقت عيونه وخيل الي ان دمعة توشك ن تسقط وعاد صوته يرجف من جديد:

- إسمع يا استاذ..

- ايها الكذاب.. انت تعيش مع امك.. اليس كذلك ايها الكذاب؟

ـ كلا يا استاذ. . كلا. . ان امي ميتة ولكنني لا استطيع ان اقول. . فحينما ماتت امي طلب والدي منا ان لا نقول شيئاً عن موتها. . ان نصمت. .

تراخت قبضتي وسألت بضعة:

ـ لماذا؟

ـ لم يكن يملك اجرة الدفن. . . وكان خائفاً من الحكومة. .

اسدلت ذراعي الى جنبي، واستطعت ان التقط خوف الصغير الساذج الذي استمر حتى هذا اليوم دون مبرر ولكنني خفت ان اكون مخدوعاً فعدت اصيح، ولكن بليونة اكثر. . .

ـ وابوك؟ قلت لي انه مات. . . اليس كذلك؟

لم يستطع حميد ان يتماسك اكثر فادار وجهه الى الحائط واخذ يبكي فيما سمعت خلال نشيجه صوته الضعيف:

ـ انه لم يمت. . . إنه مجنون يدور في الشوارع نصف عار. . لقد جن بعد ان شاهد رأس اخي يقطعه المصعد. . .

ـ جن؟

ـ نعم. . . لقد اطلّ اخي داخل قفص المصعد من اجل ان يستقبل اباه. . . وشاهد ابي المنظر بأم عينيه، فأخذ يعدو في الشارع. .

قلت، مستشعراً الدوار يتكلب في صدغيّ:

ـ لماذا قلت لي انك تبيع الكعك؟ هل تستحي من صنعتك؟

لانت نظرات حميد، وحدق الّي بعيون شفافة قائلا بخجل:

ـ لا . . لقد كنت ابيع كعكاً، واوّل امس عدت الى هذه الصنعة . .
ـ ولكنك كنت تكسب كثيراً؟
ـ نعم، ولكن . .

وعاد الرأس الصغير ينوس كعادته كلما تعرض لخجل اكبر منه، ودق بالفرشاة على سطح الصندوق دقات منتظمة هامساً دون ان يرفع بصره . .

ـ كنت اجوع آخر الليل . . وكنت آكل كعكتين او ثلاثة.

لم أدر كيف اتصرف، هممت ان اطلق ساقي للريح، ولكنني وجدتني اضعف من ان افعل . . وبقي الرأس الصغير بشعره الاسود الخشن منحنياً، ودون ان احس رفعت قدمي واركزتها على حدبة الصندوق . .

بدأت الكفان الصغيرتان تعملان بحذق فيما اخذ الرأس الخشن يهتز فوق الحذاء، ثم وصلني الصوت ذاته قائلاً ببساطة:

ـ استاذ . . . انت لم تغيرّ حذاءك منذ عام . . . هذا حذاء رخيص.

كويت ـ ١٩٥٩

في جنازتي

ايتها الغالية . . .

لو اردت الحقيقة فانا لا اعرف ماذا يتعين عليّ ان اكتب لك . . كل الكلمات التي يمكن ان يخفقها قلم مشتاق كتبتها لك عندما كنت هناك، اما الآن . . فلا شيء استطيع ان لا اكرره على مسمعك . . ماذا اقول لك؟ أأقول كما يقول اي انسان سويّ بأن حبك يجري هادراً في دمي كطوفان لا يلجم؟ كنت استطيع ان اقول لك ذلك لو كان هذا الذي يجري في شراييني شيئاً ذا قيمة . . ولكنني في الحقيقة انسان مريض . . فالدم الذي يحترق فيّ لا قيمة له على الاطلاق: فهو دم يليق بأنسان عجوز، نصف ميت، نصف ساكن، ليس في صدره سوى صناديق الماضي المقفلة، اما مستقبله فمجرد شمعة تضيء آخر لهبها كي تنطفىء، ثم ينتهي كل شيء . .

كنت اعتقد، ايتها الغالية، ان الايام حين تمر سوف تبلسم قليلاً من الجرح . . ولكن يبدو لي الآن انني اشتد تهاوياً كشيء افرغ من تماسكه على حين فجأة فهو لا يعرف ماذا يقيمه . ان كل يوم يمر يحفر في صمودي صدعاً لا يعوض . . وكل لحظة تصفع وجهي بحقيقة أمر من حقيقة . . اليوم صباحاً صعدت الدرج راكضاً وحين شارفت نهايته احسست بقلبي ينشد على ضلوعي ويتوتر حتى ليكاد ينقطع . . اي شباب هذا؟

اية قيمة تبقى يا عزيزة؟ اية قيمة؟ لماذا اسير اكثر الى الامام؟ اي شيء يلوح كالشبح في ظلمة سوادها اقتم من ضمير طاغية؟ اي شيء افدته من حياتي كلها. . نعم، اي شيء؟

ولكنني كنت اعيش من اجل غد لا خوف فيه. . وكنت اجوع من اجل ان اشبع في ذات يوم. . وكنت اريد ان اصل الى هذا الغد. . لم يكن لحياتي يومذاك اية قيمة سوى ما يعطيها الامل العميق الاخضر بأن السماء لا يمكن ان تكون قاسية الى لا حدود. . وبأن هذا الطفل، الذي تكسرت على شفتيه ابتسامة الطمأنينة، سوف يمضي حياته هكذا، ممزقاً كغيوم تشرين، رمادياً كأودية مترعة بالضباب، ضائعاً كشمس جاءت تشرق فلم تجد افقها. .

ولكن السماء، والارض، وكل شيء، كانت على شكل مغاير لآمال الصغير. . لقد مضت الشهور قاسية بطيئة. . وحين كبر. . تسلمته عائلته كي يعطيها اللقمة التي اعطته يوم لم يكن يستطيع ان ينتزعها بنفسه. . المسؤولية شيء جميل. . . ولكن الرجل الذي يواجه مسؤولية لا يقدر على احتمالها تسلب رجولته شيئاً فشيئاً تحت ضغط الطلب. . . كل شيء في العالم كان يقف في وجهه. . . كل انسان كان يصفعه، وكل يوم يمر كان يبصق في وجهه شعوراً مراً حاد المرارة بالتقصير.

ورغم ذلك. . . كنت اقول لذات نفسي «اصبر، يا ولد، انك ما زلت على اعتاب عمرك، وغداً،وبعد غد، سوف تشرق شمس جديدة، ألست تناضل الآن من اجل ذلك المستقبل؟ سوف تفخر بانك انت الذي صنعته باظافرك، منذ اسه الاول. . . الى الآخر. . » وكان هذا الامل يبرر لي ألم يومي، وكنت احدق الى الامام وادوس على اشواك

درب جاف كأنه طريق ضيق في مقبرة . .

ثم حدث شيء جميل ، لقد انشقت الغيوم المتكومة عن ضوء بعيد ، تحررت قليلاً من ضغط الحاجة . . ثم . . ثم تعـرفت اليك . . أتذكرين؟ ، لقد جمعتنا حفلة صغيرة ، وحين التقت عيوني بعيونك احسست بمعول ينقض في صدري فيهدم كل المرارة التي اجترعتها طوال طفولتي . . . كان شعرك في اروع فوضى ، وكانت عيونك مؤطرة بسواد آسر . . . لقد وجدت نفسي احدق اليك دون وعي وكتبت انت عن هذه اللحظة في مذكراتك ـ التي قرأتها فيما بعد ـ انك استلطفت هذا البحار الذي يحدق كأنما يوشك ان يلقي مرساته في ميناء . . .

ومرة بعد مرة كنت اراك فأرى نفسي أشد التصاقاً بنفسي . . كنت اقف امامك كطفل يفصله عن لعبته زجاج واجهة ملونة فحسب . . . وترتجف الكلمات الموهنة في حلقي ثم تتساقط واحدة تلو الاخرى الى صدري فأسمع لها خفقاً عنيفاً يهز اضلاعي . . . وعرفتك اكثر فأكثر . . . وكتبت في مذكراتك عن تلك الايام . .

«انني انتظر ان اعرفه اكثر فاكثر . . . » وكنت انا لا اقوى ، بعد ، على كتابة ايما شيء عنك . . .

ثم . . . آه ايتها العزيزة ، لقد احببتك بكل القوى التي تحتويها ضلوع انسان يبحث عن استقرار . . بكل خفقان القلب الذي تعذب طوال عمره . . . بكل صلابة الاضلاع التي جاعت ، وتشردت وتألمت . . . من اجل هذه اللحظة . . . كنت المنارة التي اشرقت على حين غرة امام الزورق التائه . . . وتشبثت بهذا الايجاد بكل ما في زنودي من توق الى الطمأنينة . . .

وكتبت لي، يومذاك، تقولين: «لماذا انا اشتاق اليك كل هذا الشوق، اذا كانت «انا» تعنينا نحن الاثنين. . كما اتفقنا؟» وكنت انا اضم املي بعنف يليق به. وكنت اريدك. . اريدك. . بكل ما في هذه الكلمة من طلب. . وبدا لي ان الحياة قد ابتسمت اخيراً وان القلعة الجهمة من الالم، القلعة التي ارتفعت حجراً مراً فوق حجر مر في وجودي. . هذه القلعة اطل من فوقها الآن على كل هذه السعادة. . واعطاني هذا التصور رضى كاف. .

وغبت عنك بعيداً حيث اقتلع لقم عيشي اقتلاعاً. . وهناك، في ذلك البلد البعيد الذي يحتوي على كل شيء وليس فيه اي شيء. . البلد الذي يعطيك كل شيء ويضن عليك بكل شيء، في ذلك البلد البعيد الذي يتلون افقه في كل غروب بحرمان ممض، والذي يشرق صباحه بقلق لا يرحم. . هناك، كنت اعيش على امل ان استطيع، في يوم يأتي ان اضع حداً لكل شيء. . وان ابدأ معك من جديد منذ البدء. . ولكن القدر كان لا يريد للشراع ان يندفع في ريح طموح وحينما جأرت عيون الطبيب تدب الي خبر الرعب الذي يجري في عروقي، احسست بالقلوع كلها تتهاوى في اعماقي، وسمعت قرقعة التهاوي تدوي في اذني، ويدور عالمي بي حتى تغشى عيوني بضباب ساخن. . وعيون الطبيب امامي تكفن مستقبلي، وعروق جبهته العريضة تقدم تفاصيل عذاب متصل ناشف.

وحين عادت بي اعصابي، سمعت كلمات جوفاء يقيؤها الطبيب بلا اعماق، كلمات عن الامل، عن الشجاعة، عن العلم، عن الشباب. . . كلمات فقدت كل معانيها، واصبحت حروفها مجرد

ديدان صغيرة تلتف حول نفسها بلا مبرر. . . ما هي الشجاعة التي يطالبني بها الطبيب؟ ان اواجه مستقبلا انا اعرف انه مشوب بالحرمان والتعاسة؟ ام ان استسلم لهذا المستقبل بالقدرية التي تليق بعجوز باع حياته كي يشتري آخرته كتاجر بلا رأس مال؟ ما هو الامل وانا على يقين بان لا شيء يلوح في الافق. . اي شباب؟ نعم اي شباب هذا الذي لم يومض قط. . . الذي لم يعش قط. . اي شباب؟ كم تصبح تافهة قيمة الكلمات التي يرددها الطبيب لمجرد ان كتب الطب قالت ذلك.

ولكن الصفعة الاقوى اتت حينما هبطت الدرج عائداً من عيادة الطبيب، لقد تذكرتك. . . وفي اللحظة التي ومض فيها وجهك الحي في عيني، ومضت في صدري صاعقة يأس سوداء. . . هل تقبل هذه الانسانة رجلا مريضاً؟ كي تنجب منه ابناء مرضى؟ هل تقبل ان تكون ممرضة؟ ان تعيش مع شاب نصف ميت؟

وكانت الايام التي اتت ذات قساوة اعمق. . لقد فشلت في ان اكون بطلا، او شجاعاً، كما ارادني الطبيب، واحسست بان الاشياء الصغيرة التي كانت تملأ حياتي بالتفاصيل قد فقدت اهميتها بالنسبة لي، وان الايام التي سوف تأتي لا تحمل في جوانحها اي خفقة جديدة لهذا القلب المسكين. . . لقد فشلت في ان امثل دور البطل. . . وكان كل شيء في الحياة يتحداني ويمتص صمودي ويشمخ امام ضعفي كسد هائل من اليأس. . .

اني امشي في جنازتي رغم انفي. . . كل العظات الجوفاء التي علمتها في السنوات الماضية تبدو لي الآن فقاعات صابون سخيفة شديدة السخافة، ان المرء يكون شجاعاً طالما هو ليس في حاجة للشجاعة. . .

ولكنه يتهاوى حينما تصبح القضية قضية حقيقية... حينما يصبح عليه ان يفهم الشجاعة بمعنى الاستسلام.. بمعنى ان يلقي جانباً كل ما هو انساني ويكتفي بالتفرج، لا بالممارسة...

وكنت انت، في كل طريقي الى غرفتي، عذابي ودواري.. وكنت احس بك تتسربين من بين ضلوعي، من بين اصابعي، وانني اعض عبثا على امل لا يريد ان يبقى معي... وكانت جملتك تدوي في رأسي، جملتك التي كتبتها لي ذات يوم: «لو تبدلت افكارك سأتركك... المهم سوف يكون فراق... اتفهم انت معنى هذا الرعب؟؟» لم يتبدل رأسي، ايتها العزيزة، لقد تبدل دمي، تبدل كل شيء... واخاف ان اقف امام عيونك، استجدي حبك استجداء انسان فقدَ اشياءه العزيزة.. اخاف ـ بكل ما في هذه الكلمة من جبن ـ ان أتطلع الى عيونك فأرى معنى من معاني الرفض مغلفاً بالشفقة.. سوف احس بان قدمي انزلقتا فوق الصخر الذي امضيت عمري اتسلقه بكل قواي.. وسوف لن يقدر الوادي، قط، ان يعيد لي ولو شيئاً من الرغبة في الاستمرار. أتعرفين معنى ان يفقد الانسان كل شيء في مدى لحظات عودته الى داره؟ أتعرفين معنى ان يكتشف شاب بان حياته القاسية الجافة لم تكن الا عبثاً محضاً في لحظات قصار؟ ثم، أتفهمين معنى ان يقوم حب ما على أعمدة من الشفقة فحسب؟

ونمت تلك الليلة في زورق جموح يناضل دوامة بلا قرار.. وكان رأسي مسرحاً لهزليات كثيرة تتعاقب دون رباط.. آرائي التي كونتها اصبحت في حاجة لتنظيف.. القيم التي عبدتها يجب ان تحطم.. الأحلام التي كومتها في صدري لم يعد لي حق امتلاكها، وكل

شيء في ماضيّ وحاضري ومستقبلي تغلف بميوعة ذات رائحة عفنة.. وبدت لي كل القيم التي وضعها الانسان المغرور لحياته ليست سوى هذيان سكران يريد ان ينسى..

وافكار المريض، حينما تجمح به تصوراته، افكار مضحكة مبكية.. لقد حسبت لمدى لحيظات ان اختياري من بين آلاف الآلاف من البشر لأكون مريضاً بهذا الداء الملعون المزمن عملية تقويم فذة، وان هذا المرض وسام من طراز نادر يزين صدري من الداخل وانني اكاد اسمع رنينه مع خفقان قلبي.. ولكن الحقيقة كانت شيئاً آخر.. وحينما صحوت كانت المأساة تمتد امام بصري جهمة، حادة، سوداء، ممتدة في مستقبلي الى ما لا نهاية، تعبق بالعجز والحرمان...

لماذا كنت افكر فيك انت بالذات اكثر من أي شيء آخر؟. لقد بدا لي كل شيء ممكن الاحتمال، ولكنك انت كنت عذابي الخاص الملح.. وكنت اريد، بكل قواي، ان احلّ هذا الالحاح بصورة من الصور، ان اتركك واهرب.. او ان التصق بك اكثر فأكثر.. ولكن الموقف الخائف، الموقف المتردد كان يقض رأسي بلا رحمة..

وبعد يوم آخر، وصلت الى قرار.. انني، الان، لا أعرف ما الذي دفعني الى ذلك القرار، لقد نسيت، او، فلنقل ان الاحداث التي جرت فيما بعد جعلتني انسى.. ولكن الشيء الذي اذكر انه كان في رأسي حينما قررت قراري هو انني يجب ان اكون بطلاً ولو مرة واحدة حقيقية. ان اكون واحداً من اولئك الذين ترد اسماؤهم في القصص بصفتهم واجهوا مواقفهم الحادة بشجاعة فائقة، وصفعوا اقدارهم الخاصة بكل ما في وسعهم من قسوة.. وقلت لنفسي، فيما انا سعيد بعض الشيء

بأنني قد توصلت الى قرار: «سوف اسكب لها الحقيقة، كل الحقيقة.. ولسوف تعرف هي اي عذاب حملته لنفسي حينما قررت ان اتركها تبحث عن طريق آخر لحياة سعيدة، هي تعرف كم احبها.. ولو لم تستطع ان تفهم عظم تضحيتي الآن. فلسوف تعرفها في المستقبل على اي حال.. انا لا يهمني ان تعرف او ان لا تعرف.. كل ما هنالك ان ضميري سوف يرتاح بعض الشيء، وان حياتي، سوف تكتسب شيئاً من الطمأنينة، والقناعة..».

انت لا تعرفين، يا عزيزتي، كم كلفني هذا القرار.. فلنقل انني كنت مريضاً منهاراً فلم استطع ان افهم أي عمل انا مقدم عليه.. فلنقل انني أردت ان اغوص حتى عنقي في اوحال التحدي المغرور وانني اردت لنفسي ان تفقد كل شيء على الاطلاق طالما هي فقدت اهم الاشياء.. فلنقل انني أردت ان امزق كل ما في صدري من بقايا الآمال المحتضرة وان هذا التحدي السخيف كان الطريقة الوحيدة التي استطيع ان ابرهن فيها لنفسي ـ ولو لأقصر مدى ممكن ـ أنه ما زال في توقي ان اتصرف كانسان.. كأي انسان.. فلنقل ايما شيء، ولكن الشيء الماثل باصرار هو ان قراري كان نهائياً.. وانني، طوال الطريق اليك، كنت قابضاً عليه في صدري بكل ما في قدرتي.. وان ضلوعي كانت تنبض بقسوة، ولكن بلا جدوى..

ما جرى، بعد، انت تعرفينه جيداً كما يعرف انسان ما وجه عملة ما.. ولكنه لا يعرف وجهها الآخر على الأطلاق.. وكنت انا ذلك الوجه الآخر، لقد صارعت في داخلي بكل قواي كي استطيع ان اقول لك، او ألهث امامك، قراري.. ولكن كل شيء كان يرفض ان يصل

الى حلقي . . كنت لا اقدر ان اقف كما يقف اي بطل شكسبيري ليزف مأساته بجرأة القرون الماضية . . وكنت ابحث جاهداً عن نافذة ادخل منها . . عن كلمة اتعلق بها . . عن اي شيء اتكىء عليه . . ولكنني اعطيتك في ترددي فرصة نادرة لتهدمي كل شيء . .

لقد كنتِ اجرأ مني في ان تعترفي بان هنالك رجلا آخر . . وبأنك مضطرة لأن ترضخي للفرص التي منحها لك . . والتي لم امنحها انا . . ولكن هل قلت لي انت بان هنالك رجلا آخر حقيقة؟ كلا . . انك لم تلفظي الكلمات . . ولكنك قلتها بعيونك، وحركاتك، وخلف حروفك الدوارة . . قلتها بصراحة اقسى من اي كلمة واضحة . . وصفعتني بها قبل ان اجد الكلمة التي احملها مأساتي، واشحنها بنبأ مرضي الحزين . . لقد قلت كل شيء بجرأة تليق بامرأة تريد ان تستقر . . وحينما غيبك الباب، غيبتك الايام . . وذهبت الى حيث لا ادري، ولكنني احس . . ولقد عذبتك اللحظة، هذا شيء واضح ولكنك تركت كل شيء معي، بين الجدران العارية، وذهبت . . بدأت . . نسيت . . ولم تسمعي مني ابداً الكلمات التي زرعتها بكل ما تبقى من كرامتي. الكلمات التي جمعتها ليلة بعد ليلة من لهاثي . . وشجاعتي . . وخوفي . . والتي لم يتيسر لي ان اقولها لك . .

وكنت احدق الى الباب العتيق بعدما اغلقته . . كان يخيل الي انني ما زلت اراك تدقين ارصفة دمشق، وكنت اسمع خفقات خطواتك بكل وضوح، ولكنني كنت في القاع . . في آخر الدوامة . . لقد شعرت فوراً اي شيء فقدت . . وفقدته رغم انفي . . انت لا تعرفين انك اضعت عليّ فرصتي الاخيرة في ان استعيد انسانيتي التي امتصها المرض حتى

آخرها. . انت لا تعرفين كم حرمتني من وسيلتي الوحيدة التي كنت اريد فيها ان اقنع نفسي بانني ما زلت استطيع ان اكون شجاعاً. . وبدت لي كل حياتي صدفة فارغة لم يكن لها اي معنى. . وان اخطاء العالم كلها تلتقي عندي. .

لماذا تسرعت في الاعتراف؟ لماذا؟ لماذا لم تتركي لي فرصتي الخاصة في ان امثل آخر ادواري؟. . ولكنك لا تعرفين. . لقد حدث كل شيء بسرعة، وانت الآن هناك، في حديقة ما، تضحكين معه، وتتحدثان عن الصغار الذين سيزينون مستقبلكما. . ان لك كل الحق في ان تفعلي، وفي ان يفعل، ولكن من يستطيع ان يمنعني، انا الآخر، من ان احقد عليكما. . على الجميع. . وعلى نفسي؟ من يستطيع ان يحرمني من ان اكرهكم جميعاً. . واتمنى الموت لكم. . ولي. . ولكل شيء؟ القيم والمثل؟كلا، انها قيمكم ومثلكم انتم. . الناس الاصحاء السعداء. . اما قيمي ومثلي فهي شيء آخر. . شيء خاص مختلف يتناسب واكوام المرارة التي اعيش فوقها. .

ارأيت؟ لقد كان الفرق لحظة واحدة فحسب. . لو تأخرت في اعترافك، لكان تغير كل شيء. ولكن الفرصة ضاعت الان. . وابتدأت انت تماماً من حيث انتهيت انا. .

دمشق - ١٩٥٩

الارجوحة

قررت ان اصارحها، مهما كلفني الأمر من ذلة. . وكنت قد وصلت الى قرار صغير: اذا كنت أنوي الزواج منها، فلماذا لا احكي لها قصتي مع ندى؟ صحيح ان علاقتي مع ندى لم تنته تماماً، لكن كلينا اصبح يعرف انها انتهت، ولم يبق من كل تلك القصة سوى ان تنقل الى القبر، بكلمة حازمة اقولها او تقولها. . وهذا كله ليس غباء، ليس جراً لمشكلة انا في غنى عنها، كما قال صديق حكيم. . اذ انه من المستحيل ان يتصور احد ماذا عساه يحدث لو وصلت قصتي مع ندى الى اذني غيداء عن طريق لسان غير لساني. . «سوف تجعل النملة فيلاً. . انا اعرفها» هكذا قلت للصديق، «انت لا تعرف كيف ينقل الناس القصص. . ولا تعرف كيف تفهم غيداء القصص. . ».

ثم، لماذا لا اصارحها؟ هل تتصور انني امضيت عمري، قبل ان القاها، ملاكاً يجر خلفه رداء فضيلة ابيض؟ لكل منا تجربته في الحياة. . فلماذا لا اصارحها؟ لماذا لا اقول لها انني كنت احبها، ثم انتهى الامر ووجد كل منا مصيره الخاص العميق؟ على العكس ايضاً، انا ارى انها سوف تكتشف مزيداً من البراهين على حبي لها حينما تعلم ان اختياري لم يكن فرصة صدف وجودها في طريقي. . وحينما تعلم، ايضاً، انني تركت امرأة اخرى من اجلها، ثم اعترفت لها. .

لا ، لا بد من الصراحة . . قد لا يكون ثمة ربح منها، ولكن لا يمكن ان تكون اية خسارة ايضاً . . وفي نهاية الامر، اليس من حقها ان تعلم كل شيء عني قبل ان تتشابك ايدينا لنمضي معاً؟

ـ انت تتصرف هكذا حينما تكون على وشك القيام بعمل ما . .

ـ كيف اتصرف؟

ـ تهز رأسك بعنف كأنك تنفض عنه شيئاً، او تثبت شيئاً . . ماذا عندك اليوم؟

هذه المخلوقة تلاحظ كل شيء . . ولذلك فهي تسهّل علي قول اي شيء . . انها تقرأ حركاتي قراءة، وهذا شيء رائع في الحقيقة، كانت على المقعد الكبير الذي ينام في ظل الصنوبرة العجوز، هنا كان اول لقاء . . وبعدها كنا نأتي اليه دائماً دون ان نجعل من ذلك موضوعاً للرومانسية . .

ـ انت على حق . . اريد ان اصارحك بأمر ما . .

طوت قفازيها، كأنها على وشك ان تمضي، ثم رفعت عينيها الواسعتين السوداوين مباشرة في عيني، وترقبت، بينما تشاغلت انا في مسح حافة المقعد الخلفية باصبعي . .

ـ انت تعرفين، هنالك امور يجب ان نتصارح بها . .

ـ طبعاً . .

قذفتها بايجاز، واستمرت في الانتظار . .

ـ قبل أن اعرفك كان لي علاقة بانسانة اسمها ندى . .

ـ كنت تحبها؟

ـ نعم.. ولكنني الآن كففت عن حبها..

عادت، ففردت قفازيها فوق حقيبة يدها السوداء، وقالت:

ـ كففت عن حبها؟ كيف؟ اغلقت درجها في الخزانة؟

ـ اية خزانة؟

ـ قلبك.. خيّل اليّ انك تمتلك فيه مجموعة أدراج، تفتح واحداً وتغلق آخر حسبما ترغب..

لم اكن أتوقع، في الحقيقة، ان تجري الامور في هذا الاتجاه، وهكذا فقد وجدتني، فجأة، محتاراً..

ـ كفي عن السخرية، غيداء، انت لا تعتقدين انني صفحة بيضاء امضت عمرها تنتظر..

ـ طبعاً كلا، انا افهم انني لا استحق انتظارك.. لقد تكرمت عليّ بالسطر الأخير في صفحتك البيضاء.. أليس كذلك؟.

كيف يمكن زحزحة الموضوع الآن عن هذه الطريق العجيبة؟ امضيت فترة صامتاً مفكراً، ثم عدت من نقطة البدء:

ـ كنت اتكلم عن فتاة عرفتها، اسمها ندى..

ـ هل كانت جميلة؟.

ـ كلا.. نوعاً ما.. نعم.. كانت جميلة..

ـ ولماذا لم تتذكرها الا الآن؟

ـ قلت لك انني اريد ان اوضح الاشياء.

ـ انت تخاف ان اسمع القصة من سواك؟ أليس كذلك؟

ـ نعم.. لذلك اريد ان اصارحك..

طوت قفازيها، ثم فتحت الحقيبة، ورمتهما فيها، واغلقتها بعنف:

ـ تريد ان تسدّ كل الطرق الأخرى حولي؟.

ـ عن اية طرق تتحدثين؟ لا تكوني غبيّة.. انا لا اريدك ان تغضبي لمجرد ان احدهم حرّف القصة لك، او كذب عليك..

نظرت اليّ بهدوء، وكنت الاحظ الثورة العميقة في عينيها..

ـ تريد ان تروي القصة انت.. وسوف يظهر البطل مسكيناً للغاية.. اعتقد انك ستقول: لقد رمت شبكة عليّ وسحبتني خلفها؟

عبثاً.. كان يجب الا ابدأ بالحديث.. كيف يمكن لي ان اصل الى الموضوع دون مقاطعة؟. اقتربت منها، ووضعت يدي على ظهر المقعد خلفها.

ـ غيداء.. حاولي ان تفهمي.. كانت لي علاقة مع ندى.. والآن انتهت العلاقة.. هذا هو ما اردت قوله منذ البدء.

ابتعدت قليلاً، ودفعت رأسها للوراء:

ـ ولماذا تقوله لي؟

ـ لانك يجب ان تعرفي..

ـ هل قلته لها؟

ـ كلا . .

هزّت رأسها، وحدقت الى الارض، وخيّل اليّ انها على وشك ان تبكي . .

ـ كلا، لم اقله، ولكنها تعرفه . .

ـ كيف؟

ـ لست ادري ! . . يخيّل اليّ انها تعرفه . .

اطلقت همسة سخرية مغمغمة، ورفعت شعرها باصابعها . . وسألت ببرود:

ـ أهذه هي القصة؟

هززت رأسي موافقاً، فأضافت:

ـ يعني، اذا رأيتكما معاً ذات يوم، يجب ان اقول لنفسي : لا شيء في الأمر ولا اهمية له . . لقد كفّ عن حبها . . أليس هذا ما تريده؟

ـ كلا، ليس هذا ما اريده . . الذي اريده هو ان تقولي لمن ينقل لك القصة: هذا ليس شأنك . . انا اعرف كل شيء . .

ـ ولكني لا اعرف كل شيء . . اليس كذلك؟ انت لم تقل لي كم مرة قبلتها وكيف؟ كم مرة قلت لها احبك . . تراك كنت تقبلها كما تقبلني الآن؟ تغمض عيني بابهاميك وتغرس بقية اصابعك في شعري، عند اذني؟ . .

نهضت واقفة حاملة حقيبتها، وكان غضبها مجنوناً:

ـ انا لا اعرف شيئاً . . من يدري . . الم تقل لها ان ثمة علاقة لك مع واحدة . . نعم، مع واحدة . . ولكنها علاقة غير مهمة؟ .

وصل الأمر الى الذروة، فاسترخيت في يأس واغمضت عيني، خطت خطوتين، ثم عادت فواجهتني:

ـ ارجو ان لا تعتبر نفسك فارساً تترامى البنات على قدميه . . انت لست الا صفحة بيضاء كذابة . . انت كذاب . .

سمعت وقع خطواتها يبتعد بعصبية، بينما بقيت عيناي مغلقتين . .

●

سوف يكون الامر اكثر سهولة مع ندى . . واذا ما انتهى الامر معها يصير من السهل استرضاء غيداء مرة اخرى . . هذه كانت نقطة ضعف مهلكة، ان لا انهي الأمر تماماً مع ندى قبل ان اصارح غيداء . . لماذا لم انهِ الامر مع ندى اولاً؟ على الاقل، ان ندى تترك المرء يقول كل ما في رأسه قبل ان تقاطعه، وتجعله يقول ما تريده هي . .

ـ لقد عدت ايها الشقي ! الم اطلب منك ان لا تأتي لمكان عملي؟ ماذا دهاك؟ هل برّحك الشوق؟

تشاغلت بلمس قطعة قماش مفروشة امامها، وهمست:

ـ ندى . . لديّ ما اقوله . .

ـ سوف لن احضر لك كرسياً . . يجب ان تبقى واقفاً في المحل، الم اقل لك ذلك . . لماذا تبدو كئيباً؟

ـ بسبب ما اريد قوله الآن . .

ابتسمت، ونظرت اليّ من طرفي عينيها فيما اخذت تطوي قطعة القماش حول خشبتها:

ـ لا تكذب . . انت كئيب لانني لم آت لموعدك الأخير. . ولكن صدقني، لقد كنت مشغولة جداً . .

ـ ندى، انا مقدم على الزواج . .

رفعت عيني ، فجأة، وجمّعت كل طاقتي لانظر اليها مباشرة، ولكنها استمرت في طوي القماشة، واتسعت ابتسامتها:

ـ ورغم ذلك . . فانت لن تثير غيرتي . . فتش عن كذبة اخرى . .

ـ ندى، انا لا احاول ان اثير غيرتك . . انا مقدم على الزواج فعلاً . .

حملت رزمة القماش، ودستها في مكانها، ثم عادت، فنظرت اليّ متكئة على الحاجز القائم بيننا:

ـ وما هو اسم العروس؟

ـ غيداء . .

ضربت يدها على فخذها بدلال، وهزت رأسها ببطء:

ـ ايها العزيز . . الم يسعفك رأسك الا بهذا الاسم الشاعري؟ . انت تسقط دائماً في حفر صغيرة . . لماذا لم تقل ليلى مثلاً، او زينب . . الست تعتقد انه اسم واقعي اكثر؟ .

ـ ندى . . انا احبها . .

- اوه ايها العزيز، اوه. . مجرد إخلافي لموعد واحد يجعلك ترمي الى ايلامي بهذه الصورة؟ لماذا لا تكف عن اللعب؟.

لا، لا يمكن ان يستمر هذا. . اقتربت من الحاجز ومسكتها من زنديها. .

- انا لا العب. . انا احب واحدة اسمها غيداء، واريد ان اتزوجها. .

- ولماذا تقول ذلك لي انا؟ قله لها. .

تحيّرت، ومضيت افتش عن نقطة بدء اخرى. . بينما اطلقت هي ضحكة قصيرة، وسحبت زنديها من كفيّ، واستندت الى رفّ القماش:

- خيالك يقصّر دائماً. . متى تريد ان اراك؟

- لا اريد ان اراك. . اريد ان اتزوج!

كتفت ذراعيها على صدرها، واستمرت في الابتسام:

- تزوّج. . ألست ترى انني اقوى من ان تثار غيرتي بكذبات من هذا الطراز؟. . من الذي علمك ان تصل الى الحب عن طريق الغيرة ايها الشقيّ؟. .

- لا احد. . لا احد علمني. . كيف يمكن ان اقنعك. . كيف؟.

عادت فاقتربت من الحاجز، ومثلت دور المتألم:

- اوه ايها العزيز. . انني اكاد اموت غيرة. . وانت ممثل بارع. .

اقسم بشرفي، ايها العزيز، لقد كنت مشغولة يوم موعدك. . لماذا لا تصدق؟ .

لم اعد استطيع ايقاف غضبي ، فانفجرت :

ـ لماذا لا تصدقين انت؟

ـ انا؟ انا اصدقك تماماً . .

لمست ظاهر كفيّ باناملها ، واسقطت رأسها على صدرها ، ثم رفعت عينيها بدلال :

ـ هل صدقت؟ حسناً . . متى تريد ان أراك ايها العاشق؟

بيروت ١٩٦١

القسم الثاني

موت سرير رقم ١٢
لؤلؤ في الطريق
الرجل الذي لم يمت
العطش
المجنون
ثماني دقائق

القسم الثاني

موت سرير رقم ١٢

عزيزي احمد،

اخترتك انت بالذات لهذه الرسالة لسبب قد يبدو لك تافهاً، لكنه اضحى ـ منذ امس ـ مرتكز تفكيري كله. اخترتك انت بالذات لانني حينما رأيته مساء امس يموت على السرير الابيض العالي تذكرت كم كنتَ تستعمل كلمة الموت للتدليل على التطرف. لطالما سمعت منك امثال هذه الجمل: «كان يموت من الضحك» و«انني تعب حتى الموت» و«ان الموت لا يستطيع ان يسكت حبي» والى اخر ما هنالك. صحيح اننا كلنا نستعمل هذه الكلمات ولكنك انت تستعملها اكثر من الجميع. وهكذا فلقد تذكرتك وانا اراه ينكمش في سريره، ويشد اصابعه الطويلة النحيلة على غطاء الفراش ثم ينتفض، ويحدق الي بعيون ميتة.

لماذا لا ابدأ لك القصة من اولها؟ انت تعرف لا شك انني اقضي شهري الثاني في هذا المستشفى، انني اشكو من قرحة في امعائي، وكلما سد الجراح ثقباً هناك انفتح في رأسي ثقب جديد لا يدري عنه شيئاً، صدقني يا احمد ان «قرحة» الدماغ اقسى بكثير من قرحة الامعاء. ان غرفتي تطل من ناحية بابها على الممر الرئيسي لجناح الامراض الداخلية، وتطل نافذتها على حديقة المستشفى الصغيرة. وهكذا فانني

استطيع ان الاحظ، وانا متكىء على وسادتي: المرضى الذين يمرون بلا انقطاع امام الباب، والعصافير التي تطير، بلا انقطاع ايضاً، امام النافذة. وفي هذا العجيج من الناس الذين يأتون الى هنا ليموتوا تحت طمأنينة المبضع، والذين اراهم آتين على اقدامهم، مغادرين بعد ايام او ساعات، على عربة الموت، ملفوفين بغطاء ابيض، في هذا العجيج اجد نفسي غير قادر على تدارك الثقوب التي اخذت تنفتح في رأسي، غير قادر على وقف نزيف الاسئلة التي تجأر بلا رحمة..

ولسوف اغادر المستشفى بعد ايام قليلة، فلقد رقعوا امعائي ما وسعهم ذلك. استطيع الآن ان اسير معتمداً على ذراع ممرضة عجوز قبيحة، وعلى قوة فضولي. ان المستشفى لم يفعل شيئاً سوى انه نقل القرحة من امعائي الى رأسي، ان الطب هنا، كما قلت للعجوز القبيحة، يستطيع ان يسد ثقباً في الامعاء ولكنه لا يستطيع مطلقاً ان يجد اجوبة ليسد بها ثقوباً في التفكير، لقد ضحكت العجوز يومها عن اسنان ناقصة مسودة، وقادتني بهدوء الى الميزان.

على اي حال ما لنا ولهذا الحديث انني اريد ان اتكلم عن الموت. عن موت يحدث امامك لا عن موت تسمع عنه. ان الفرق بين هذين الطرازين من الموت فرق شاسع لا يستطيع ان يدركه الا من يشاهد انساناً يتكمش بغطاء سريره بكل ما في اصابعه الراجفة من قوة كي يقاوم انزلاقاً رهيباً الى الفناء. كأنما يستطيع الغطاء ان يشده عن ذلك الجبار الذي يستل من عيونه شيئاً فشيئاً، هذه الحياة التي لا نعرف عنها شيئاً.

وحينما كان ينتفض والاطباء حوله ينتظرون، تصفحت البطاقة

المعلقة على ذيل السرير. كنت قد تسللت من غرفتي ووقفت هناك، وكان الاطباء مشغولين عني بمحاولة يائسة لانقاذ الميت، وقرأت «الاسم: محمد علي اكبر. العمر: ٢٥ عاماً. الجنسية: عُماني». وقلبت الورقة قارئاً مرة اخرى: «سرطان في الدم» عدت أحدق الى الوجه النحيل الاسمر والعيون الراعبة الواسعة والشفاه التي ترتجف كبحر من مياه بنفسجية. لقد دارت العيون حتى استقرت على وجهي وخيل الي انه يستغيث بي. لماذا؟ ألانني كنت أطرح السلام عليه كل صباح؟ أم لانه شاهد في وجهي فهماً للرعب الذي يعانيه؟ لقد بقي يحدق الي. ثم، ببساطة، مات..

عندها فقط اكتشفني الطبيب فجرني غاضباً الى غرفتي، ولكنه لم يستطع قط ان يبعدني عن المنظر الماثل في ذهني. صعدت الى سريري وسمعت صوت المرض يقول ببساطة في الممر المجاور للباب:

ـ مات سرير رقم ١٢!

قلت لنفسي: «لقد فقد محمد علي اكبر اسمه، انه سرير رقم ١٢». ولكن ما الذي اعنيه حينما أتحدث الآن عن انسان كان اسمه محمد علي أكبر؟ وما الذي يهمه من ان يكون ما زال محتفظاً بأسمه ام يكون هذا الاسم قد استبدل برقم ما؟ وتذكرت في تلك اللحظة كم كان يرفض ان يحذف شيء من هذا الاسم حينما كان ينادى به عليه، كانت الممرضة تسأله في كل صباح:

«كيف حالك يا محمد علي؟» وكان محمد علي لا يجيب اذ انه كان يعتبر ان اسمه هو محمد علي أكبر، هكذا، دفعة واحدة، وان محمد علي هذا الذي تسأله الممرضة انسان آخر.

وكان الممرضون يجدون في هذا الاصرار على وحدة الاسم مادة للمداعبة، ولكن محمد علي أكبر لم يتخل قط عن جديته في الموضوع، ربما كان يعتبر ان حقه في امتلاك اسمه الكامل هو اصراره على ان يمتلك شيئاً ما. . لقد كان فقيراً، فقيراً جداً، اكثر مما تتصور انت بخيالك الباذخ المتسكع في المقهى، كان الفقر شيئاً محفوراً في وجهه، على زنديه، في صدره، في طريقة أكله، في كل ما يحيط به من اشياء.

حينما استطعت ان أسير على قدميّ لاول مرة بعد عملية الترقيع، زرته، كان ظهر سريره مرفوعاً وكان جالساً بشرود غريب، لقد جلست على طرف السرير هنيهة تبادلنا فيها حديثاً موجزاً باهتاً، ولفت نظري انه يضع الى جانب وسادته صندوقاً خشبياً عتيقاً منقوشاً عليه اسمه بحروف نصف فارسية، مربوطاً ربطاً محكماً بخيط من القنب، وفيما عدا ذلك كان لا يملك شيئاً سوى ملابسه المحفوظة في خزانة المستشفى. اذكر يومها انني سألت الممرضة.

ـ ماذا في هذا الصندوق العتيق؟

وقالت الممرضة وهي تضحك:

ـ لا احد يدري. انه يرفض ان يتخلى عن هذا الصندوق لحظة واحدة.

ثم مالت علي وهمست:

ـ هؤلاء الفقراء المظهر يخفون عادة ثروة ما، قد تكون هذه هي ثروته!

وطوال وجودي هنا لم يزره احد في المستشفى، لم يكن يعرف احداً،

وهكذا فلقد كنت ارسل له شيئاً من الحلويات التي يغدقها علي زواري. وكان يقبل كل شيء بلا حماسة. لم يكن يجيد الشكر وكان هذا التصرف يورثني شيئاً من الحنق العابر.

لم اهتم بالصندوق اللغز. وكانت حالة محمد علي اكبر تسوء باتصال، ورغم ذلك فان موقفه من الصندوق لم يتغير مما جعل الممرضة تقول لي انه لو كان في الصندوق ثروة ما لكان وزعها او اوصى بها طالما هو يتجه بهذه السرعة للموت. ولقد ضحكت يومها كالحكماء الصغار قائلاً لنفسي ان غباء هذه الانسانة لا يكاد يبلغ حده، اذ كيف تريد من محمد علي اكبر ان يقيم دليلاً على نفسه بانه لا محالة هالك؟ وبانه ليس ثمة اي امل بالنجاة؟ ان اصراره على الاحتفاظ بالصندوق هو بمثابة اصراره على الاحتفاظ بامله في ان ينجو ويعود لصندوقه ويعود صندوقه له.

وحينما مات محمد علي اكبر شاهدت الصندوق الى جانبه كما كان كل يوم، وخطر لبالي ان من الواجب علينا ان ندفن الصندوق معه دون ان نفتحه، ولكن هذا الخاطر لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للقضية، وذهبت الى غرفتي، وطوال تلك الليلة لم انم، كان محمد علي اكبر محفوظاً في المشرحة مصروراً بغطاء ابيض، ولكنه كان، في الآن ذاته، يجلس في غرفتي يحدق الي، ويمر في عنابر المستشفى، ويتفقد سريره، واكاد اسمع انفاسه تلهث قبل ان ينام، وحينما اشرق الصباح على اشجار حديقة المستشفى كنت قد كونت لنفسي قصة كاملة عنه.

***

محمد علي اكبر فقير من الحي الغربي في قرية «ابخا» في عمان، شاب

نحيل اسمر يتقد في عينيه طموح لا يعرف كيف ينطلق. صحيح انه كان فقيراً ولكن ماذا يعني الفقر للمرء اذا كان لم ير في حياته شيئاً سواه؟ ان «ابخا» كلها تشكو الفقر وهو فقر مماثل تماماً لما يعانيه محمد علي اكبر ولكنه كان فقراً قنوعاً، فقراً مستقراً يفتقر لحافز يجعله يشعر بانه الخطأ وبان هنالك شيئاً اسمه «غنى» وهكذا فان القربتين،اللتين كان يحملهما محمد علي اكبر على كتفيه قارعاً ابواب الناس كي يبيعهم ماء،كانتا الكفتين اللتين تقيمان الميزان، لقد كان محمد علي اكبر يستشعر شيئاً من الدوار حين كان يتخلى عن قربتيه وكان حين يحملهما كل صباح يحس بان حياته انما تجري باطمئنان وانه قد امن على مسير متوازن لا ينحرف.

كان من الممكن ان تستمر حياة محمد علي اكبر على هذا المنوال المنظم الهادىء، كان من الممكن ان يحدث ذلك لو ان القدر كالحضارة، اعني لو ان القدر لم يصل الى عمان البعيدة كما لم تصل الحضارة الى هناك، ولكن القدر كان موجوداً حتى في عمان البعيدة، وكان لا بد لمحمد علي اكبر من ان يعاني قليلاً من مزاح هذا القدر.

حدث ذلك في صباح قائظ. كان تراب الطريق ساخناً رغم ان الشمس لم تكن قد استوت بعد في السماء. وكانت هنالك نسيمات شمالية تنفخها الصحراء في وجهه مع قليل من التراب، لقد قرع باباً فأطلت من فتحته سمراء صغيرة بعيون واسعة سوداء، وحدث كل شيء بغاية السرعة، لقد وقف امام الباب كأخرق اضاع اتجاه الطريق والقربتان تتمايلان على كتفيه الضامرتين، وانشأ يحدق اليها بلا وعي، يتمنى، كأنسان مصاب بضربة شمس خفيفة، ان تكون لعيونه قدرة سحرية على ضمها، وعصرها. وبادلته هي التحديق من باب

الاستغراب ليس غير، ولما لم يقو على قول اي شيء، ادار ظهره وقفل عائداً بقربتيه الى الدار.

ورغم ان محمد علي اكبر يمتاز بانه خجول حتى امام اهله، فانه يومئذ لم يجد اي مناص من ان يسكب الامر بين يدي اخته الكبرى. كانت امه قد ماتت بالجدري منذ زمن طويل، وكان ابوه مقعداً لا يقوى على الحركة، وهكذا طلب العون من اخته اذا انه كان يثق بما لا يقبل الجدل بان «سبيكة» اخته هذه، تتمتع بذكاء واتزان يجعلانها قادرة على حل مشكلة من هذا الطراز كانت جالسة قبالته على الحصير متدثرة بثوبها الاسود الخشن، وبقيت صامتة حتى لهث «محمد علي اكبر» آخر قصته امامها ثم قالت:

ـ أخطبها لك.. أليس هذا ما تريده؟

ـ نعم، نعم. هل هذا ممكن؟

قالت اخته وهي تنتزع قشة من الحصيرة القديمة:

ـ ولماذا لا؟ انت اصبحت شاباً وكلنا في ابخا سواء.

وبات محمد علي اكبر تلك الليلة على قلق من نار، حتى اذا ما اشرق الصبح قام الى اخته فوجدها اشد توقاً منه الى الذهاب، وتواعدا على ان يلتقيا في الدار عند الظهيرة فتعرض عليه نتاج مساعيها ومن هناك يعدان معاً مشروعهما لاكمال القصة.

لم يدر محمد علي اكبر كيف امضى وقته يدور في الازقة وقرب الماء على كتفيه. كان يواصل التحديق الى ظله يدعو الله ان يجعله دائرة حول قدميه كي يشد ساقيه عائداً الى الدار. ولقد حلت الظهيرة بعد لأي

فعاد ادراجه واستقبلته اخته على الباب:

ـ يبدو ان امها توافق. ولكن القضية لا بد ان تعرض على ابيها. وسوف يرد ابوها الجواب بعد خمسة ايام!

ترسب عند محمد علي اكبر شعور بانه لا بد ينجح في خطبتها. وانطلق منذ ذلك اليوم يبني على قدر ما اعطاه خياله، صوراً للغد مع السمراء الصغيرة الجميلة. وكانت اخته سبيكة ترقب الامر بعين حكيمة مجربة.. ثم انها كانت واثقة من النجاح.. فهي متأكدة من نظافة اسمه في افواه اخوانه في «ابخا» وكانت من ناحية اخرى تهتم كثيراً بموافقة ام الفتاة، ذلك انها كانت تعرف كيف تستطيع المرأة ان تقدم اية فكرة لزوجها وتجعله يقتنع بها كأنه هو صاحبها.. ولذلك كانت سبيكة مطمئنة تمام الاطمئنان الى مصير القضية.

وفي اليوم الخامس ذهبت سبيكة الى دار الفتاة كي تأتي بآخر جواب.. ولكنها عادت ووجهها مكسو بفشل حزين. لقد وقفت هناك في زاوية الغرفة غير قادرة على وضع عيونها في عيون محمد علي اكبر، ولم تدر كيف تبدأ، وحينما استطاعت ان تستجمع شجاعتها قالت:

ـ يجب ان تنساها يا محمد علي.

لم يدر ما يقول فاخذ ينتظر ان تتم اخته حديثها، ووجدت سبيكة في صمته فرصتها لكي تتابع..

ـ لقد مات ابوها قبل يومين، وكانت وصيته الاخيرة لاهل داره ان لا يزوجوها لك.

سمع محمد علي اكبر الكلام كأنه موجه لانسان اخر ولكنه لم يملك سوى ان يسأل:

ـ ولكن لماذا يا سبيكة . . لماذا؟

ـ قيل له انك شقي تعيش على سرقة الخراف على طريق الجبل وانك تتجر مع الاجانب بسرقاتك.

ـ انا؟

ولم تستطع سبيكة ان تحافظ على تماسك صوتها فرجفت امامه:

ـ ظنوا انك محمد علي . . اتعرف محمد علي الشقي؟ لقد ظن والدها انه انت . .

قال كطفل يبرر ذنبا لم يرتكبه، باسطا كفيه امامه:

ـ ولكني لست محمد علي . . انا محمد علي اكبر . .

ـ حدث خطأ . . قلت لهم في اول مرة ان اسمك محمد علي، لم اقل محمد علي اكبر لانني لم اشعر بحاجة لكي اقول . .

احس محمد علي اكبر بصدره يتهاوى تحت ثقل اللطمة. ولكنه بقي واقفاً مكانه يحدق الى اخته سبيكة دون ان يراها تماماً، كان الغضب يعميه، وحاول ان يضرب سهما اخيراً:

ـ هل قلت لامها انني لست محمد علي وانني محمد علي اكبر؟

ـ نعم ولكن وصية الاب الاخيرة كانت الا يزوجوها لك!

ـ ولكنني محمد علي اكبر . . بائع الماء . . اليس كذلك؟

ما الفائدة من كل القلق الذي اعتراه؟ لقد انتهى كل شيء ببساطة، كلمة واحدة وقفت في حلق القضية، فماتت، لم يستطع محمد علي اكبر

ان ينسى الفتاة ببساطة وظل يحوم حول بيتها طامعاً في ان يراها مرة اخرى. لماذا؟ لم يكن يدري. ولكن فشله المتصل جعله يحمل في صدره غضباً ضارياً تحول الى كراهية، ثم لم يعد يستطيع محمد علي اكبر ان يمر في تلك الطريق مخافة ان يستبد به الحنق، فيرمي نافذة بيتها بحجر.

من ذلك اليوم بدأ يرفض الا ان ينادى باسمه الكامل.. «محمد علي اكبر» دفعة واحدة.. وكان يرفض ان يجيب على اي انسان يناديه «بمحمد» فقط او «بمحمد علي» ثم ما لبث هذا الرفض ان اصبح عادة.. حتى اخته سبيكة كانت لا تجرؤ على تمزيق اسمه.. لقد كان محمد علي اكبر في كل مكان ينادى باسمه الكامل دفعة واحدة..

ورغم ذلك، فان القناعة لم تعد تدخل إلى صدره قط.. وبدأت «ابخا» تتحول في عينيه شيئاً بعد شيء الى مقبرة قاتمة.. لقد رفض اصرار اخته على تزويجه.. وبدأت دودة اسمها «الثروة» تنخر في رأسه.. لقد اراد ان ينتقم من كل شيء.. ان يتزوج امرأة يتحدى بها كل «ابخا».. وكل الذين لا يصدقون انه محمد علي اكبر، وليس محمد علي الشقي.. ولكن اين يجد الثروة؟ وهكذا قرر ان يركب البحر الى الكويت..

المسافة بين «ابخا» ورأس الخيمة ساعتان سيراً على الاقدام. ومن رأس الخيمة الى الكويت عن طريق البحر رحلة تستغرق ثلاثة ايام.. واجرة الرحلة على مركب مهلهل تكلف سبعين روبية.. فاذا دفعها، فانه يستطيع ان يبدأ في الكويت حياة جديدة.. ويستطيع بعد عام او عامين ان يعود الى عمان.. ويستطيع ان يتخطر في ازقة «ابخا» لابساً عباءة بيضاء ناصعة مذهبة الحواشي، كتلك التي شاهدها على كتفي

وجيه من وجهاء رأس الخيمة، اتى لبلدته كي يخطب فتاة وصلت شهرة جمالها حتى داره.

لقد كانت الرحلة شاقة حقاً.. ان المركب الذي حمل هذا الحشد الطموح عبر الجنوب، ثم صعد المضيق الى الشمال قاصداً ركن الخليج تعرض بصورة متصلة لاخطار عجيبة.. ولكن النفوس الجياشة التي اعتادت مشاق الحياة لم تكن تبالي بشيء، وكانت الايدي كلها تتعاون على انقاذ هذه الخشبة الطافية فوق زبد البحر الكبير.. وحينما اطلت صواري المراكب مستلقية في ميناء الكويت الهادىء احس محمد علي اكبر بشعور غريب.. لقد سقط الحلم الآن من عالم التصور الملون الى الحقيقة.. واضحى عليه الآن ان يفتش عن طريق البدء.. عن اول الحلم.. خيل اليه ان الخيالات التي غذتها كراهيته لابخا ليست كافية للانتقام منها.. وحين كان المركب الواهن يقترب جاراً نفسه من المراكب الراسية، كان شعوره يهبط الى الارض رويداً رويداً، وبدا له، لمدى لحظات قصار، ان احلامه الطويلة عن الثروة كانت سلوى فشله المفاجىء وانها لم تكن تحمل أي ذرة من المعقول.. بدت له الشوارع الغاصة والابنية ذات الجدران الصلبة، والسماء الرمادية، والقيظ، والهواء الشمالي الساخن، والطرق المزدحمة بالسيارات، والوجوه الجادة.. بدت له كل هذه الاشياء سدوداً تقف بينه وبين حلمه.. لقد كان يغذ الخطى سائراً على غير هدى في هذا الخضم من الناس مستشعراً الضياع العميق الذي يشبه الدوار.. ظاناً، حتى اطراف اليقين، ان الوجوه هذه الكثيرة التي لا تنظر اليه هي اعداؤه الاول.. وان هؤلاء الناس، كلهم، هم الجدران التي تعترض اول طريقه الى حلمه.. لم تكن القصة هينة كما في «ابخا»، كانت القصة هنا بلا بدء،

بلا نهاية، بلا ملامح، وبدت له كل الطرق التي سار فيها انها لا تنتهي. . وانها تدور حول سور يحتضن كل شيء. . كل شيء على الاطلاق. . وحينما قاده طريق ما الى الشاطىء عند الغروب ورأى البحر مرة اخرى. . وقف يحدق عبر الافق البعيد المتصل بالماء. . كانت «ابخا» هناك. . ملفوفة بالهدوء. . موجودة على اي حال. . كل حي فيها له بدء وله نهاية. . وكل جدار يحمل ملامحه الخاصة. . كانت قريبة من قلبه رغم كل شيء. . وكان يحس انه ضائع في دوامة من الماء الساخن. . ولأول مرة لم يراوده اي احساس بالخجل حينما رفع اصابعه، ومسح دمعاً مالحاً كان يملأ خديه. .

لقد بكى محمد علي اكبر دون حرج. . قد يكون بكى لاول مرة منذ شب، واجتاحه، على حين غرة، شوق ضارٍ لقربتي الماء يحملهما على كتفيه. . كان ما زال يحدق الى الافق، وكان الليل يهبط شيئاً فشيئاً حواليه. . فيجعله يحس نوعاً ما، بانه موجود في مكان ما. . في زمان ما. . وان هذا الليل كليل «ابخا». . الناس ينامون خلف جدرانهم. . والشوارع تحمل ملامح التعب والصمت. . والبحر يهدر لاهثاً تحت ضوء القمر. . شعر بالراحة، ورغب في ان يضحك، ولكنه لم يستطع، فعاد يبكي. .

أعطاه الفجر دفقة من أمل جديد. . فقام يجري في الشوارع. انه يعرف، الى حد بعيد، ان عليه ان يجد انساناً من عمان يتحدث معه. . ولسوف يجد هذا الانسان ان عاجلاً أو آجلاً، ومن هناك سوف يعرف أين يتعين عليه ان يخطو، ان يبدأ!

وهكذا، وصل محمد علي اكبر الى مركزه كفرّاش في دائرة ما. . لقد

صُرفت له دراجة يقضي عليها حوائج دائرته. . ومن على ظهر هذه الدراجة بدأت ملامح الشوارع، ومعاني الجدران تدخل الى رأسه. . احسّ بشيء من الالفة. . ولكنها الفة ملصوقة على خلفية من شعور قاتم بأنه انما يلاحق بعيون أخته سبيكة، وبخصاص نافذة الفتاة، وبمحمد علي الشقي الذي سبب من حيث لا يدري، كارثة مروعة.

لقد مضت الشهور كما تمضي عجلات الدراجة فوق الطريق. كانت الثروة قد بدأت ترد. . وكان محمد علي اكبر يتمسك بثروته الصغيرة، بكل قواه مخافة ان تجتاحها نزوة عابرة، أو يتسلط عليها شقي. ومن هنا نبعت فكرته في ان يصنع صندوقاً خشبياً متماسكاً يحفظ فيه ثروته.

ولكن ما هي ثروة محمد علي اكبر؟ انها شيء لا يقدر بثمن! فحينما جمع محمد علي اكبر من ثروته قدراً معيناً من المال اشترى به عباءة بيضاء شفافة، مذهبة الاطراف. . وكان في كل مساء، حينما يخلو الى صندوقه، يخرج منه العباءة المطوية باعتناء. . ويمرر أصابعه السمراء النحيلة فوقها بحنان. . وينشرها أمام عينيه، ويسكب فوقها احلامه الصغيرة، راسماً على أطرافها شوارع قريته كلها. والنوافذ الواطئة المشبكة بالخشب، تطل من خلفها عيون الصبايا. وهناك، في ركن من العباءة، كان الماضي منزوياً لا يقوى على العودة، ولكن وجوده كان ضرورياً من أجل ان يعطي العباءة قيمتها الحقيقية. . وكانت الأصابع النحيلة تعيد طي العباءة بالحنان نفسه، وتطمئن اليها في صندوقها الخشبي. . وكانت نفس الأصابع تربط الصندوق بخيط قوي من القنب. . وساعتها، كان يحلو النوم. . ساعتها فقط!

وكان ثمة في الصندوق، حلق خزفي لأخته سبيكة تزين به أذنيها إذ

يعود «لابخا» . . وزجاجة من عطر قوي، وصرة بيضاء مصرورة على ما يسره الله له من نقود، معقودة على امل ان تزداد يوماً بعد يوم.

اما النهاية فلقد بدأت ذات مساء، حينما كان يعيد دراجته الى المخزن، احس بشيء يحترق في اطرافه، وهاله ان يكون قد ضعف الى هذا الحد، وبهذه السرعة، ولكنه لم يأبه كثيراً لذلك، فان نوبات الارتجاف كانت تأتيه حينما يشتد به الحنين لسبيكة ولابخا وللعودة. . ولقد احس بذلك الضعف مرفقاً بحنين ضار لكل الاشياء التي كرهها، واحبها، وهجرها، وشكلت ماضيه كله. . وهكذا فلقد طوى محمد علي اكبر الطريق الى داره على هذا الظن. . ولكن لا الضعف ولا الحنين غادراه حتى منتصف نهار اليوم التالي. . وعندما حاول ان يقوم من فراشه تعجب ان يكون قد نام حتى الظهيرة دون ان يصحو مبكراً كالعادة، والذي هاله اكثر انه كان ما يزال يستشعر الضعف ينخر في عظامه. . لقد فكر قليلا خائفاً بعض الشيء، وتصور نفسه في لحظة واحدة واقفاً على شاطىء البحر ووهج الشمس المنعكس على الماء يكاد يعميه، كانت قلتا الماء على كتفيه، وكان يستشعر ارهاقاً مضنياً، لقد اشتد انعكاس الشمس، ورغم ذلك لم يكن باستطاعة عينيه ان تنغلقا. . كانتا تحترقان. . ودون ان يفكر، عاد الى النوم. .

هنا، انتهى الزمن، كما يفهمه اي مخلوق، بالنسبة لمحمد علي اكبر، لقد جرى كل شيء فيما بعد وكأنه كان مرفوعاً عن الارض، وكأن رجليه كانتا مدلاتين دون ان تلمسا شيئاً، كالمشنوق، كان هو الذي يتحرك امام لوحة الزمن، اما اللوحة فلقد كانت جامدة كجبل من بازلت. . لقد انتهى دوره كانسان ممارس، واتى دوره كمتفرج فقط. .

كان يحس بانه لا يوجد رباط يشده الى اي شيء.. بانه بعيد وبان كل الاشياء التي تتحرك امامه عبارة عن اسماك داخل كوب زجاجي كبير. وكانت عيناه المنفرجتان رغم ذلك - زجاجيتين ايضاً.

وحينما صحا، مرة اخرى، شاهد رجالا يحملونه من ساعديه وساقيه، كان منهكاً ولكنه وجد القوة التي تذكره ان هنالك شيئاً ضرورياً فصاح بصوت واهٍ:

- الصندوق.. الصندوق.

ولكن احداً لم يهتم به.. فقام بحركة يائسة من اجل ان يعود الى صندوقه، لقد انتفض بكل قواه وهتف من صدره اللاهث:

- الصندوق!

ومرة اخرى لم يسمعه احد..

كان قد وصل الى الباب. فتمسك بخشبة الوسط وعاد يلهث بصوت ابيض:

- الصندوق..

ولم يحتمل الجهد فوقع في غيبوبة شاطىء البحر نفسها.. كان يحس، هذه المرة، ان مد البحر يعلو قدميه شيئاً فشيئاً، وان الماء شديد البرودة.. وكانت يداه تتمسكان بصخرة مربعة تغوص به الى ادنى.. وحينما صحا من جديد وجد نفسه يتعبط صندوقه العتيق المربوط بخيط من القنب، وكانت ثمة اشباح بيضاء تمر من امامه ذاهبة آيبة.. وكانت هنالك ابرة مغروسة في ساعده ووجه يطل عليه من فوق..

مضت ايام طويلة.. أنقول ايام طويلة فحسب؟

الصحيح انه لم يمر شيء بالنسبة لمحمد علي أكبر، لقد استمرت قسوة الألم بكيفية ما.. لم يكن يحس بمرور هذه القسوة. كان يحسّ باستقرارها واستمرارها فقط.. وصار البحر يمتزج بنوافذ مشبكة الخشب واطئة على طرف الطريق، وبحلق من الخزف، وبعباءة مبلولة بماء مالح، وبمركب معلق فوق الموج لا يتحرك وبصندوق خشبي عتيق.

مرة واحدة فقط، أحس بعلاقة ما مع العالم.. لقد كان، كلا لم يكن، حينما سمع صوتاً الى جانبه:

ـ ماذا في هذا الصندوق العتيق؟

نظر الى مصدر الصوت، وشاهد، كمن يحلم، وجهاً لشاب حليق بشعر اشقر يشير الى الصندوق وينظر الى شيء ما..

كانت لحظة التذكر قصيرة.. اذ عاد ينظر الى البحر بصمت ولكن وجه الشاب الحليق الاشقر كان ما زال امامه ايضاً. احس بعدها بنشاط مفاجىء، لقد توضحت الاشياء بلا سبب. وشاهد شروق الشمس بوضوح لاول مرة منذ وقع.. وخيل اليه انه قادر على القيام من فراشه والعودة الى دراجته.. لقد توضح كل شيء: كان الصندوق الى جانبه، وكان مربوطا كما كان، شعر باطمئنان وتحرك لينهض، ولكنه فوجىء بحشد من الرجال ذوي الملابس البيضاء حوله ينظرون اليه بفضول.. حاول محمد علي اكبر ان يقول شيئاً ولكنه لم يستطع، واحس فجأة بان المد قد علا حتى وسطه وان الماء برد الى درجة لا تحتمل، لا تحس.. لقد مد ذراعيه كي يتمسك بشيء ما خوف ان يغرق، ولكن كل شيء كان

ينحني تحت اصابعه. وفجأة رأى امامه الوجه الحليق للشاب الاشقر فحدق اليه خائفاً منه على صندوقه بعض الشيء، فيما استمر الماء يعلو ويعلو حتى حجب عن عينيه ذلك الوجه الاشقر الحليق. .

ـ لقد مات سرير رقم ١٢. .

هتف الممرض، بينما لم استطع ان اتحرر من عيون محمد علي اكبر وهي تحدق الي قبل ان يموت. . لقد تصورت ان محمد علي اكبر الذي كان يرفض ان يمزق اسمه الى قطع صغيرة، تصورت ان محمد علي اكبر هذا سوف يقتنع الان بانه سرير رقم ١٢ لو اطمأن فقط الى مصير صندوقه . . لو اطمأن. .

هذه يا عزيزي احمد قصة محمد علي اكبر، سرير رقم ١٢، الذي مات مساء امس، والذي يستلقي الان ملفوفاً بقماش ابيض في المشرحة. . الوجه النحيل الاسمر الذي نقل القرحة من امعائي الى رأسي. . والذي جعلني اكتب لك، كي لا تقول مرة اخرى امامي جملتك المشهورة «كدت اموت من الضحك».

ودم لاخيك

***

عزيزي احمد

لم اغادر المستشفى بعد، ان صحتي تتدرج نحو ان تكون طبيعية وطريقتي في اكتشاف ذلك طريقة طريفة. .

هل تعرف كيف ازين قوتي؟

انني اقف على الشرفة ادخن، وارمي بعقب السيجارة بكل ما في ذراعي من قوة حيث يسقط بين سطور الحشائش الخضراء في الحديقة. . لقد كان عقب السيجارة في الاسابيع الماضية يسقط بعد السطر الرابع بقليل، اما اليوم فلقد اقترب من السطر السادس كثيراً. .

فهمت من رسالتك انك لست في حاجة لترى موت محمد علي اكبر كي تعرف ما هو الموت. . ولقد كتبت تقول ان حادثة الموت لا تحتاج الى المقدمات المأساوية التي وصفتها لحياة محمد علي اكبر وان الناس يموتون ببساطة اشد، ذلك الذي وقع عن الرصيف فانطلق مسدسه المحشو ومزقت الرصاصة عنقه: كان ذاهباً مع فتاة رائعة الجمال. . والذي قتلته نوبة قلبية في الطريق، مساء يوم نيساني، كان قد عقد قرانه قبل اسبوع، كل هذا صحيح يا عزيزي احمد، كل هذا صحيح، ولكن القضية ليست هنا ابداً، ان قضية الموت ليست على الاطلاق قضية الميت، انها قضية الباقين، المنتظرين بمرارة دورهم لكي يكونوا درساً صغيراً للعيون الحية. . انني اريد ان اقول لك من كل ما كتبت في رسالتي الماضية ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة النهاية. . يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت. . وسواء، على رأيك ، مات الانسان وهو يتملى محاسن جسد فتاة رائعة الجمال. . ام مات وهو يحدق الى وجه حليق يخاف منه على صندوق خشبي عتيق مربوط بخيط من القنب. . فان المشكلة تبقى مشكلة نهاية. . مشكلة انعدام او خلود. . او. . او ماذا؟ او ماذا يا عزيزي احمد؟

على اي حال دعنا من صب الماء في كيس مثقوب. . هل تعرف ماذا حدث بعد ان ارسلت لك الرسالة الماضية؟ لقد ذهبت الى غرفة الطبيب

فوجدتهم يكتبون تقريراً عن محمد علي اكبر. . وكانوا على وشك ان يفتحوا الصندوق. . آه يا احمد كم نحن محبوسون في اجسادنا وعقولنا. . اننا دائماً نعطي الآخرين صفاتنا وننظر اليهم من خلال مضيق من آرائنا وتفكيرنا، نريدهم ان يكونوا «نحن» ما وسعنا ذلك. . نريد ان نحشرهم في جلودنا، ان نعطيهم عيوننا كي ينظروا بها. وان نلبسهم ماضينا، وطريقتنا في مواجهة الحياة. . ونضعهم داخل اطر يرسمها فهمنا الحالي للزمان والمكان. .

لم يكن محمد علي اكبر شيئاً مما ذكرناه. . كان أبا لثلاثة اولاد وبنتين. . لقد نسينا ان الرجل يتزوج هناك مبكراً، ثم ان محمد علي اكبر لم يكن بائع ماء، فان الماء متوفر بكثرة في عُمان، كان بحاراً على مركب شراعي يتنقل على موانىء الجنوب والخليج. . قبل ان يستقر هنا منذ فترة طويلة. .

لقد وصل محمد علي اكبر للكويت قبل اربع سنوات. . واستطاع - بعد جهد شرس لا يتصور - وقبل شهرين فقط ان يفتح شبه دكان على رصيف من ارصفة الشارع الجديد. . اما كيف كان يعيل اولاده في عُمان، فهذا ما لا نعرف عنه شيئاً.

لقد قرأت في التقرير الذي وضعه الطبيب ان المريض، قد عميت عيناه قبل موته بست ساعات، وهكذا فان محمد علي اكبر لم يكن يحدق في وجهي ساعة مات. . كان اعمى. . وكتب الطبيب ايضا ان عنوان اهل المريض مجهول، وهكذا فان دفنه سيصير بمعرفة حفاري المستشفى فقط!

قرأ الطبيب التقرير بصوت عال لزملائه، كان موجزاً ويدور حول المرض فقط بتعابير فنية، وكان مركزاً الى حد بعيد، وكان صوت الطبيب يرن بنغم حزين شاحب، وحينما انتهى من القراءة عمد الى الصندوق يعالج خيط القنب. . عندها فكرت ان اغادر الغرفة، فالامر لا يهمني. . لقد مات محمد علي اكبر الذي اعرفه، وهذا الذي يكتبون عنه انسان آخر، والصندوق ايضا صندوق آخر. . انني اعرف يقيناً ما الذي في صندوق محمد علي اكبر، فما الذي يحشر انفي في قضية جديدة؟. .

ورغم ذلك. . فانني لم استطع ان اقصد الباب. لقد وقفت في الركن راجفاً بعض الشيء.

وما لبث الصندوق ان انفتح، وبعثرت اصابع الطبيب ما في داخله بسرعة، ثم القته جانبا. .

لقد نظرت بوجل الى داخل الصندوق. . كانت مجموعة فواتير بديون الدكان الجديدة للمخازن المورّدة تملأ انحاءه. وكانت في الطرف صورة قديمة لوجه ملتح. . وجلدساعة قديم، وخيط من القنب، وشمعة صغيرة، وبضع «روبيات» منثورة بين الاوراق.

لقد اصبت بخيبة امل. . اقول لك الحق. . وقبل ان اخرج من الغرفة شاهدت ما صعقني، لقد ازاحت الممرضة فواتير محمد علي اكبر جانباً، فبرق في قاع الصندوق حلق خزفي طويل. . شعرت بالدوار وتقدمت الى الصندوق ورفعت الحلق باصبعي، لا ادري لماذا نظرت الى الممرضة وقلت فجأة:

ـ هذا الحلق كان اشتراه لاخته سبيكه . . انا اعرف هذا جيداً . .

لقد حدقت الي هنيهة مستغربة بعض الشيء، ثم ضحكت بعنف، وضحك الطبيب للنكتة .

انت تعرف، لا شك، ان على الممرضين ان يجاملوا المصاب بقرحة في امعائه خوف ان ينتكس .

اخوك

الكويت ١٩٦٠

لؤلؤ في الطريق

صمت المذياع فجأة، وسمعت دقات ساعة منهوكة تأتي من اقصى المدينة، ثم اندلق الصوت دفعة واحدة فدوّت اغنية ماجنة قطعها صوت يهنىء بحلول العام الجديد..

ولكن الغرفة بمن فيها بقيت صامتة كما كانت، كان صمتاً من ذلك الطراز الذي يحار الانسان في تفسيره: انصمت، يا ترى، لاننا ودعنا عاماً حافلاً بالعذاب؟ ام لاننا سوف نستقبل عاماً آخر، لا يبدو أقل عذاباً؟ ام للأمرين معاً؟

كان من الضروري ان يحرك انسان ما الجو المخنوق، وهكذا اقترح حسن ان نخرج الى الشرفة. حيث نتنشق هواء العام الجديد قبل ان تبتذله انوف الآخرين، كان الظلام مخيماً بقسوة، وكان لهب احمر في نهاية الافق، حيث تحرق شركات النفط الغاز المتبقى عن حاجتها، كان اللهب يترنح في محاولة يائسة لانارة الافق كله، وكان يتهاوى بين الفينة والاخرى حتى يغسل الارض بذوبه، ثم ينطلق من جديد.

ـ «اننا نربح كثيراً، كثيراً جداً، ولكن هنالك من لا يستطيع ان يشم رائحة طعام طهي جيداً».

قال حسن ذلك فيما هو يتكىء على حاجز الشرفة، بينما اقتعد الباقون حواف النوافذ الواطئة.

كنا قد عفنا مثل هذا النوع من دروس الاخلاق، كنا نعرف كل شيء عن الناس الذين يذوبون فيها هم يفتشون عن وسيلة للعيش، وكنا نعرف، أيضاً، ادق التفاصيل عن بطولة الذين اتوا من بعيد كي يعيشوا، فماتوا من فرط ما تاقوا الى العيش. . ولم نكن في حاجة لدرس جديد في الاخلاق، يأتي من انسان حالم، يأكل الافق بعيون متجهمة، ويتكىء كالشعراء على حاجز الشرفة.

الا ان صوت حسن ما لبث ان وصل من جديد، محتوياً على شيء من التحدي:

- «أعرف قصة حدثت قبل عام كامل، في مطلع العام الماضي. وكنت انا احد ابطالها».

وعاد الى صمته، وبدا لنا انه قد كف عن رغبته في التحدث، ولكنه عاود من جديد:

- «يجب ان يموت الانسان في مطلع عام، او في نهاية عام، فذلك ادعى لحفظ تاريخ موته من انسان يموت في يوم من الايام. . لقد مات صاحبي، وبطل قصتى، في مطلع العام، وهكذا فانه من الصعوبة بمكان ان ننسى موته، ولذلك فنحن مجبرون على ان لا ننسى قصته ايضاً!».

لقد اصبح من الواجب، الآن، ان يسأل احدنا، ولو دون ان يرغب في ذلك:

- «وما هي القصة؟».

- «القصة يا سيدي غريبة حقاً. . وان كنت أتعمد نسيانها اثناء

العام، كي لا يكذبني الناس، او اكذب نفسي، فانه لمن العبث ان انساها الآن.. ونحن في مطلع عام.. لماذا؟ آه.. انني لا ادري على الاطلاق.. ولكنني اشعر انه من العبث ان انساها اكثر مما فعلت، ولذلك، فلا بد ان تسمعوها مني، وقد يخفف هذا عني بعض الشيء، ايضاً..»

واستدار حسن، فواجهنا وجه مظلل بمأساة متلبدة كتقاطيعه، كان اللهب الاحمر قد ارتفع في نهاية الافق حتى اقصاه، ثم انخفض الى الارض من جديد، وقال حسن:

ـ «لم اكن ادري ان سعد الدين سوف يلحق بي الى هنا.. صحيح اننا عشنا طفولتنا سوية، لكنني حصلت من الشهادات، فيما بعد، ما عجز هو عن تحصيله، ولذلك فان امكانية الكسب كانت متوفرة في حالتي اكثر مما هي في حالته، ولكنه رغم ذلك اتى الى هنا، طامحاً طموحاً شديداً في ان يربح شيئاً ما، ؛ وكان هذا الطموح، يورثه حماسة لا تهدأ.

لقد رحبت به ضيفاً في منزلي، وكنت اعنى به قدر طاقتي، ولكنني لم اكن استطيع تقديم اي شيء يسهل له طريق وظيفة ما، لم يكن الصراع على عبواب دوائر الدولة في مصلحته ابداً، وكانت شهادة اي انسان تعني بالنسبة له كفاً مبسوطة توشك ان تصفعه بقوة لا ترحم، وكنت على استعداد لتحمل سعد الدين اطول مدة مقدرة، ولكنني لم اكن استطيع ان امنع نفسي من ان اشرح له بين الفينة والاخرى ان الوظيفة بالنسبة له بعيدة، وان عليه ان يعود الى بلدته حيث يمكن للمشكلة ان تحل بطريقة او باخرى، قلت له في مرة ان العجلة التي تدور هنا شرسة الى حدود اسطورية، وانها لا تهتم بالانسان الفرد على الاطلاق، وان الجوع

بالنسبة للبذخ الماثل لا يمكن ان يكون الا منظراً مسلياً فحسب، وان الناس هنا يلهثون راكضين وراء القرش الى حد انهم لا يلتفتون خلفهم كي يشاهدوا الزاحفين. . ولكن سعد الدين لم يكن يهمه من الامر شيء،ولقد قال لي مرة انه لا يمكن له ان يعود بلا عمل، وبلا مال، وانه لا يستطيع ان يتحمل على الاطلاق نظرة صديق او عدو، يقول له، او يهمس، او يشير، او لا يقول ولا يهمس ولا يشير، كيف يعود من وادي الذهب بلا ذهب؟

ـ يا سعد الدين. .

كنت اقول له بين الفينة والاخرى:

ـ يا سعد الدين، غداً سوف ينتهي ما جلبته معك من مال، فكيف تريد ان تتصرف؟ هل تتوقع من اصدقائك ان يربوك في بيوتهم كأنك مدلل ضائع؟ ان صحتك لا تساعدك على العيش اعتباطا، انت تشكو ضعفا مراً في قلبك يستلزم راحة مطلقة. . وغذاء جيداً. . وهكذا فان جو العائلة يناسبك اكثر من انفراط جو العازب. . يجب ان تعود اذا وجدت في جيبك اجرة العودة.

ولكن سعد الدين لم يكن يستمع، كان يريد ان يبقى في المدينة الصاخبة، السائرة رغم كل شيء، يفتش، ويلف، ويدور، ويبحث عن شيء ما.

ولكن، يا اصدقائي، لن اطيل عليكم، لقد اتاني ذات يوم فقال ان ما معه من المال يوشك ان ينفذ، وانه قد وقع في الفخ حيث لا يستطع ان يستمر اكثر، ولا ان يتراجع، وطلب مني المشورة. . ماذا كنت استطيع

ان اقدم له سوى ثمن العودة؟ ولكنه رفض، كان يريد معجزة ما شأن كل من يأتي الى هنا. . معجزة تملأ جيوبه بالذهب، وتمسك بيده تقوده بلطف شديد الى داره على بسط ممدودة. . ولقد بذلت، يشهد الله، جهداً هائلاً من اجل ان اجتث من رأسه اية فكرة تدفعه للتردد. . ولقد اقتنع اخيراً. . ثم، وخوف ان يتراجع كعادته، طلبت منه ان يسير معي فوراً الى اقرب مكتب سفر كي يرتبط نهائيا بموعد اقلاع وشيك.

لقد سرنا معاً، كما اذكر، تلك الظهيرة، كان الجو غائما بارداً. وكان صمت سعد الدين يورثني حرجا لا قبل لي به، وهكذا قررت ان اصمت انا الاخر، ولكن صوت سعد الدين ما لبث ان انقض متلهفا، واحسست بكفه تشد ذراعي بعنف، وحين التفت اليه كان نداء مر يلتمع في عيونه، ويختلج برجاء اخير، وقال لي شبه متوسل:

ـ اسمع يا حسن. . أنا اؤمن ان خلف هذه الزرقة يوجد إله ما. . ولذلك فانا لا اظن مطلقاً انه سوف يتخلى عني، لقد وضحت امامي طريق جديدة. . ولا بد لي من سلوكها.

ـ اي طريق؟

ـ انظر هناك. . أترى ذلك الجالس امام القفص في وسط الساحة؟ أتعرف ماذا يبيع؟

ونظرت عبر الساحة، فرأيت رجلاً بائساً يجلس القرفصاء امام قفص صغير، ولم يكن هنالك اي زبون، ثم ان الطقس كان بارداً:

ـ لا أعرف!

ـ انه يبيع محاراً. . هذا القفص مليء بالمحار. . انه يجمع المحار

ويبيع كل اربع بروبية واحدة. . ان الله وحده يعرف فيما اذا كانت المحارة حبلى بلؤلؤة ام لا. . هذا ابدع «يانصيب» يمكن للواحد منا ان يشاهده عمره كله.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لابد ان اجرب حظي.

ـ أي حظ؟

ـ الحظ المدفون تحت ركام عذاب عشرة اعوام، سوف اشتري محاراً بكل ما معي، ولا بد من ان اجد لؤلؤة.

ايه ! لقد فقد سعد الدين كل توازنه، العذاب الطويل الذي امضّ كل خلايا جسده، المجهود اليائس الذي كان يبذله في سبيل ان يعيش، كل هذا جعله يعتقد ان النجاح يكمن في خدعة ما. . في طريق مبطن تحت مظهر ساذج، موجود على اي حال هنا او هناك. ولهذا كله، كان يصر على ان الثروة والراحة وكل ما طمح له يكمن في بطن محارة مجهولة. .

أتريدون الحقيقة؟ لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي، انا، ايضاً. . من يدري؟ ربما وجدنا لؤلؤة! وربما كانت لؤلؤة كبيرة مدورة، مزرقة بهدير محيط مجهول متباعد. . أليس من الممكن ان يجد سعد الدين لؤلؤة وان يستمر في النضال هنا، فترة اطول او ان يعود الى منزله وفي جيبه شيء ما؟

وهكذا توجهنا الى الرجل المقرفص امام سله المبلول. . ولكنني رغم كل شيء كنت اخاف ان يسحق سعد الدين فشلٌ آخر، فقمت بمحاول

اخيرة، ولكنها مستسلمة سلفاً:

ـ سعد الدين! هل تعرف ان فرصتك واحدة من الف؟ هل تعرف ان بين كل الف محارة توجد محارة واحدة حبلى بلؤلؤة؟ وقد يكون الجنين الثمين صغيراً كحبة عدس؟

فقال:

ـ هناك ملايين من المحارات في قاع البحر، يا حسن، أتستطيع ان تؤكد ان صاحبنا الغواص لم يحمل المحارات المحظوظة، ويترك كل المحارات الفارغة هناك؟

وجلسنا امام الرجل، ودفع له سعد الدين كل ما في جيبه واختار كوماً صغيراً من كومه، وبدا لي في تلك اللحظة ان وجود لؤلؤة في هذا الكوم من القاذورات المبتلة، طموح لا مبرر له.

وبدأت سكين الرجل تعمل بالمحارات.. كان يدخلها ببراعة فائقة في رأس المحارة، حيث شققت الشمس نافذة صغيرة تكفي لرأس النصل، ثم يرفعها بحركة دائرية فتنفتح المحارة عن كتلة لزجة شبيهة باللحم الطري، كأنها احشاء حيوان صغير، وتعمل السكين تنقيباً في قطعة اللحم، ثم تلقى المحارة العاقر في سل النفايات، وترتسم الخيبة في عيني سعد الدين، ثم تّمحي تحت اصرار امل جديد، وتعود السكين تعمل، من جديد، ايضاً.

وبدأ كوم المحارات يتصاغر شيئاً فشيئاً، ثمة غمامة مجهولة كانت تهيمن على الموقف، كانت عيون سعد الدين تتشبث لاهثة بالسكين المعقوفة وهي تفتح المحارات الفارغة، وكان الرجل يقوم بعمله بكل

بساطة، وكنت قد بدأت اتابع سعد الدين، واكاد اشاهد الغصة تمتص صموده بالف خرطوم هلامي.

ايها الاصدقاء.. ما تم، بعد، كان غريباً الى حدود مذهلة، لقد تبقت، ثمة، محارة واحدة لا غير، وكان الاجهاد قد وضح على وجه سعد الدين، فأخذت ارقبه وجلاً، مغفلاً مراقبة انامل الرجل وهي تفك غموض المحارة.. لقد بدا شكل سعد الدين مخيفاً.. شكل انسان على وشك السقوط في هوة، وكان يبدو انه قد تعلق نهائياً بهذه المحارة، وان كل المستقبل لا بد وان يكون هناك. وفجأة، التمع في العينين الملهوفتين بريق راعب، وخيل الي ان الحياة قد تمثلت لمعاناً في العينين العميقتين، لمعاناً غريباً فحسب، كان يحدق في المحارة، وكنت احدق في وجهه، ثم، وقبل ان ادرك شيئاً، سقط سعد الدين على وجهه في الوحل، وعندما حاولت رفعه ، وجدته ميتا!»

***

كان الظلام ما زال يخيم بقسوة، واللهب الاحمر يرتفع بقوة نحو الافق ثم يهمد فجأة، ومرت لحظات من الصمت الميت، لم يكن احد منا يرغب في التعليق او الحديث، ولم يكن يهمنا ساعتها ان نناقش حسن فيما اذا كان واهماً او مبالغا او كاذبا، ولكننا لم نكن نستطيع ان نخلع انفسنا عن القصة. ووصل صوت حسن مرة اخرى، راجفا متوتراً:

- «كان المسكين يشكو ضعفا في القلب، ولم يستطع ان يتحمل، ولكن يتحمل ماذا؟ صدقوني انني لا اعرف ايها الاخوة لماذا مات سعد الدين؟ هل كانت، ثمة، لؤلؤة داخل تلك المحارة الاخيرة الملعونة

فمات فرحا، ام كانت فارغة كأخواتها العاقرات، فمات غما؟ لقد مضى كل شيء بسرعة، ودون ان افطن لهذا الموضوع، لقد انساني الجسد المطروح في الوحل كل شيء عن المحار واللؤلؤ . . وعندما انتهينا من نقل الميت، كان صاحب المحار قد اختفى ، بطبيعة الحال .

الكويت ـ ١٩٥٨

الرجل الذي لم يمت

ما كاد السيد علي يطمئن على مقعده في سيارة الركاب، حتى لمح وجه السيدة زينب تجلس في الجانب الآخر من السيارة، وراوده شعور بالقلق وبالخزي في آن واحد، حتى انه اعتقد ـ لمدى لحظة واحدة ـ انه لن يحرك ساكناً اذا ما التفتت السيدة زينب تجاهه، ورأته، ثم بصقت في وجهه.. وحاول ان يرفع الجريدة امام وجهه ستاراً، ولكنه فضّل بعد قليل ان يستدير نحو النافذة.. ويحدق في الطريق!.

في يوم ما، مضى قبل عشر سنوات، كان يشعر السيد علي إذ يرى السيدة زينب بسعادة طاغية.. سعادة من ذلك الطراز الذي يشعر به ابن المدينة عندما يعثر على كوب ماء نظيف في مقهى قرية مجهولة، ورغم ان شيئاً لم يكن يجبر السيد علي على احترام السيدة زينب، إلا انه كان يشعر باضطراره لكي يفعل، بل كان يأمل في يوم يستطيع فيه ان يخطب ابنتها الى ولده.. رغم بعد الشقة بينه، هو صاحب الارض، وهي، الفلاحة البسيطة التي تستأجر عشر دونمات من ارضه..

السيدة زينب وزوجها، هكذا قال السيد علي يحدث نفسه، كانا من انشط الفلاحين الذين رآهم في حياته، ولقد استطاعا بفضل هذا النشاط ان يرسلا ابنتها الى المدينة كي تتعلم، رغم انها كانت قوية..

وكان باستطاعتها ان تمد يد العون الى الارض، وكانت دار السيدة زينب نظيفة الى حدود عجيبة كانت تحيره، ففي خارج الباب كان الذباب يتكاثر كأنه غيمة سوداء، وفي داخل الدار، كان اكتشاف ذبابة واحدة يستلزم جهداً مضنيا. ولطالما حيرته هذه الظاهرة..

كان للسيدة زينب ولد ايضا، ولقد كان قويا كثلاثة فلاحين، لم يكن يرفع رأسه عن الارض، اذ يعمل فيها، حتى ولو مر السيد علي نفسه، وحاشيته من محاسبين ومحاسيب.. ولقد شعر السيد علي مرة ان القوم لا يحترمونه كفاية.. ففي ذات يوم، مر أمام بيت السيدة زينب، فسمع صوتها من خلفه يدوي بلهجة غريبة:

سمعنا انك تريد بيع الارض..

واستدار السيد علي فرآها تتكىء على سياج من الخشب العتيق، ورأى في عينيها نظرة لم يعتدها منها..

ـ قررت ان اعود الى بلدي.. انت تعرفين انني لست من هنا، ولقد آن لي ان اعود. ها... كيف حال العزيزة ليلى؟

ورغم ذلك، فان النظرة الغريبة لم تبرح عيني السيدة زينب، وسمعها تقول بنفس تلك اللهجة، وكأنها لم تستمع قط لما قال:

ـ وسمعنا ايضا ان عرضا يهوديا قدم اليك.

شعر السيد علي ساعتها بالقلق بسبب تلك النظرة الغريبة، ورأى ان عليه ان يتقدم خطوة نحوها كي يكسب ودها:

ـ اذا استطعت ان اجر ذلك اليهودي الى ان يضيف نصف المبلغ المعروض الآن.. فسوف تكون صفقة موفقة!..

ولمحها تنتصب في وجهه، فعاجل يتابع:

ـ هذه الصفقة هائلة! اسمعي، لو بعت الارض بمبلغ صغير لكان عليكم جميعا ان تغادروا الارض.. وان تفتشوا عن مكان آخر. لانني لست مستعداً ان افقد نصف ثمن الارض من اجل مساعدتكم.. أليس هذا صحيحا؟

وبقيت عيون السيدة زينب مفتوحة دون ان ترد على التساؤل.. ورفعت ذراعيها وعقدتهما على صدرها.. ووجد ان عليه شرح فكرته بسرعة:

ـ اما اذا بعتها بمبلغ جيد.. فسوف يتيسر لي ان اعطي كل فلاح من المستأجرين مبلغاً من المال يستطيع ان يقيم اوده.. هذا افضل من ان يذهب للعمل حمالاً في الميناء.. ألست على صواب؟

وترقب الجواب، ولكن السيدة زينب قالت بهدوء وكأنها مرة اخرى لم تستمع الى اي كلمة لفظها:

ـ يجب ان لا تبيع الارض لليهودي يا سيد علي..

ـ ولكنني اذا لم ابعها لن تحصلوا علي اي قرش يساعدكم فيما بعد.. أليس كذلك؟

ـ يجب ان لا تبيع الارض لليهودي يا سيد علي..

عرف لحظتها ان عليه ان يتخذ موقفا مغايراً، واكتشف ان التساهل الذي كان يعامل به فلاحيه لم يكن في محله، وبذل جهداً كبيراً كي ينصب قامته في وجهها.. وكي يصيح بصوته الراجف:

ـ علي اي حال.. هذا عملي انا!!

واستدار.. ثم عاد ادراجه الى داره مفكراً.. هذه السيدة زينب.. شيء غريب فعلاً، انها لا تفكر بعقلها. انها لا تملك قرشاً وعلى رأي المثل المشهور «من لا يملك قرشا فهو لا يساوي قرشا..» ورغم ذلك يبدو انها سوف ترفض هذه الفرصة الكبيرة... بأي عقل يفكر أولئك المجانين؟ انه يعرف صدور الفلاحين.. لو باع الارض لما زوجت ابنتها لابنه مطلقا، بل لما سمحت لنفسها ان تستقبله في دارها.. وساءه ان تصل علاقته بالسيدة زينب الى هذا الحد... ولكنه عاد يفكر بالمبلغ المعروض.. من يدري.. فقد يستطيع ان يكسب رضى السيدة زينب برزمة صغيرة منه!

آوى الى فراشه ذلك المساء مبكراً ولكنه صحا بعد قليل على وقع خطوات ثقيلة تحت شرفة غرفته الخشبية، وكاد ان يحسب هذا الصوت وهما من اوهام النائم.. ولكنه سمع، بوضوح، هتاف رجل من تحت الشرفة:

ـ يا سيد علي..

وقبل ان يصل الى باب الشرفة ويفتحه، كان الهاتف قد صاح بصوت ثابت:

ـ اذا بعت الارض فسوف يقتلك الفلاحون!

ولم يستطع السيد علي ان يميز عندما وصل لحافة الشرفة، غير شبح باهت يختفي في زرع الحقل.. فعاد الى سريره مستشعراً خطورة غامضة..

عرف يومها السيد علي ان شقيا من أشقياء الفلاحين يريد ان يلعب لعبة تدر عليه مكسبا، او ـ هكذا فكر السيد علي ايضا ـ ربما كان عضواً في واحدة من تلك اللجان التي تشكلت لمراقبة باعة الاراضي لليهود. . على أي حال. . سوف يكون معه دفعة من المال تسكت اي لسان متحمس. .

ثم باع الارض. . وباعها لليهودي بالذات الذي اضاف نصف المبلغ الى المبلغ المعروض. . وفاز بالصفقة، ولكن القلق ما لبث ان عاوده وهو في طريق عودته الى الدار. . اذ سمع صوت السيدة زينب بلهجته الغريبة، يهتف به اذ مر من جانب بيتها:

ـ سمعنا انك بعت الارض. .

اجاب السيد علي مرتجفا بعض الشيء:

ـ نعم بعتها. . اريد ان اعود لبلدي. . انت تعلمين انني لست من هنا. . لقد اصبحت عجوزاً. . ها. . أليس كذلك؟.

ولكن وجه السيدة زينب لم يتحرك، وسمعها تقول ببرود غريب:

ـ مبروك!.

واستدارت السيدة زينب عائدة الى بيتها. . وبقي السيد علي واقفا يحس رعبا شديداً. . فلقد خاف ان يكون ضحية جديدة للمتحمسين الذين لا يسمحون للانسان بأن يفتش عن طريقة للكسب، ولكنه سرعان ما طرد الفكرة، فلقد استطاع مسبقا ان يكسب رضى جميع فلاحيه بالمبلغ الذي وعد ان يعطيه لكل واحد منهم. . ثم انه لن يبقى طويلا في تلك الارض الملعونة، التي تخطف القرش من قبضة الرجل

المطبق عليه باحكام شديد.

في ذلك المساء، سمع السيد علي بوضوح صوت خطوات ثقيلة تحت الشرفة، وقبل ان يتحرك من سريره سمع الهاتف نفسه يصيح بهدوء:

ـ يا سيد علي..

وضحك السيد علي بينه وبين نفسه، وقال ان ذلك المتحمس يرغب في وضع اتفاقية صغيرة.. وفي اللحظة التي فتح فيها الباب دوت اربع طلقات نارية، وخيل اليه انه يسمع ثرثرة تحت شرفته وجلبة مبهمة، وأحس بالدم الحار يسيل على عنقه.. وحاول ان يتمسك بالباب ولكنه اخطأه وسقط..

الا ان السيد علي لم يمت.. بل استطاع بعد اسبوع واحد ان يزور السيدة زينب، كانت تجلس امام بابها تحوك ثوبا، ورفعت بصرها اذ سلم بصوته الراجف وقالت هادئة:

ـ سمعنا عن الحادث..

ثم هزت رأسها كأنها تواسيه. ورآها تنظر الى الجرح الطويل تشده الضمادات وتخفيه(الحطة) البيضاء، ويمتد من صدغه الى عنقه، وعادت تحوك ثوبها.

ـ أتيت كي أعطيكم مبلغا بسيطا تعيشون من ورائه اذا ما أخرجكم صاحب الارض الجديد.

ولم يرتفع رأس السيدة زينب عن الثوب. واحس السيد علي بأن وجوده غير مرغوب فيه، فترك رزمة النقود على الكرسي العتيق، وحاول

ان يراقب وجه السيدة زينب، ولكنها لم تتحرك. وهبت نسمة ريح مفاجئة فتطايرت اوراق النقد.. وعدا الخادم يجمعها ووجه السيدة زينب لم يرتفع عن ثوبها.. كان وجهها صامتا قاسيا، وخيل اليه يومها انها توشك ان تنفجر ببكاء مرير.. ولكنه لم يقم من مكانه، واستغرب ان يكون للارض تلك القيمة التي تجعل وجه الانسان يتهيكل بالألم واللوعة ان هو ارغم على تركها.. ولكن على اي حال ساءه ان تصل علاقة التوتر بينه وبين السيدة زينب الى ذلك الحد..

وفجأة.. أحس بالجرح الممتد من صدغه الى عنقه يؤلمه بعنف غريب.. ووقع بصره على اوراق النقد تلعب بها الريح ويجري وراءها الخادم.. فأحس بخجل لا معنى له.. ورفع يده يتحسس الضمادات فوق الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.

لم تطل اقامة السيد علي طويلاً بعد ذلك، اذ عاد الى بلده فور شفائه.. ولم يعد يسمع شيئا عن مستأجري أرضه، وها هو ذا الآن يشاهد السيدة زينب في السيارة تجلس هادئة كأنها ما زالت تحوك ثوباً امام بابها في مرج بن عامر، صحيح ان بيع الاراضي كان سببا من اسباب نكبة هؤلاء، ولكنه لم يكن يتصور ان ذلك سوف يحدث لمجرد انه عقد صفقة موفقة مع يهودي.. ولكن ذلك حدث على اي حال.. ويبدو ان لعنة الارض سوف تلاحقه.. الى الابد.. احس احساسا واضحا هذه المرة ان وجوده في السيارة ايضا غير مرغوب فيه، وانتظر ان تقف السيارة.. فقام يسير نحو بابها.. وعرف ان السيدة زينب لمحته فتعمد ألا يلتفت.. ولكنه دون ان يشعر، رفع كفه الكبيرة كي يستر الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.

●

احست السيدة زينب عندما شاهدت ظهر السيد علي، وطرف الجرح المحفور في صدغه وعنقه ان عليها ان تجري خلفه، وتدق باصابعها على كتفه، حتى اذا ما التفت اليها بصقت في وجهه.

ولكنها هدّأت من ثورتها.. وذكرها مظهر السيد علي بايام بعيدة.

لقد كان السيد علي انسانا جيداً في مجمله - هكذا قالت السيدة زينب تحدث نفسها - لولا تعلقه الفظيع بالمال... لقد كان يقول الفلاحون عنه انه على استعداد لأن يبيع امه اذا عرض احدهم مبلغا جيداً من المال... ولقد طالما سمعوه يقول المثل الوحيد الذي يحفظه: «اذا كنت لا تملك قرشاً فأنت لا تساوي قرشاً» ولقد كان الفلاحون يقتنعون بتلك الحكمة الى اليوم الذي قال فيه فلاح يدعى «ابو احمد» يرد على قول السيد علي «لقد وجدوا عشرات الارطال من الذهب في قبر فرعون.. فكم يساوي فرعون؟» وسرعان ما حفظ الفلاحون كلمة ابي احمد.. وصارت سلاحاً يشهرونه في وجه السيد علي كلما حاول ان يحاضرهم حكمته حول القرش... على أي حال فلقد كانت معاملة السيد علي للمستأجرين وللضامنين وللمشاركين جيدة في مجملها، بل، لقد طمعت في يوم ما ان تزوج ابنتها ليلى من ابنه احمد، وفي الحقيقة انها ما أرسلتها للمدينة الا لكي تتعلم وتصبح ملائمة لابن السيد علي.

ولكن الامور تجري على نحو يغاير طموح الناس.. فلقد وصلت رسالة من ابنتها ليلى من مدرستها في حيفا تقول فيها ان السيد علي يفاوض يهودياً على بيع الارض.. وتطلب من امها ان تستفسر لها عن الحقيقة.

لقد انزعجت السيدة زينب حتماً من الخبر. . واعتبرته اهانة لامانيها ولافكارها عن السيد علي. . وعندما قابلته في اليوم التالي، كانت خائفة بعض الشيء. . فلم تكن تملك الا ان تكرر قولها له:

ـ يجب ان لا تبيع الارض يا سيد علي. .

وعندما استدار السيد علي مغضباً، احست بارتياح غريب، وتنفست الصعداء بعد ذلك الجهد الذي بذلته في سبيل ان تقف موقفها ذاك. .

وفي نفس المساء. . وصلت ليلى من حيفا. . وسرها ان تسمع من امها كيف استطاعت ان تغضب السيد علي، ولكنها اصرت يومها ان يقوم حمدان ـ اخوها ـ بتهديد السيد علي بالقتل ان هو حاول بيع الارض. . وقالت كلاماً كثيراً. . لم تفهمه السيدة زينب ولكنها صدقته عندما رأت رأس زوجها ورأس ولدها ينوسان موافقين على كلام ابنتها.

ولكن الذي حدث ـ ايضاً ـ كان شيئاً مغايراً لما رتبته السيدة زينب. . فلقد كان السيد علي عائداً الى داره في اليوم التالي عندما تيقنت انه باع الارض. . ووافق على كلامها مرتجفاً. . وعندها قالت له ببرود شديد: «مبروك»!

كانت تعرف أي رعب دوى في صدره. . ففي كل يوم كانت تقع حادثة من هذا القبيل. . رجل يبيع شيئاً لليهود فيؤدبه الوطنيون بالسوط او بالرصاص. . ورغم ان السيدة زينب كانت تعرف ان السيد علي لا يفهم الفلاحين جيداً، إلا انه لا يمكن ان يكون غبياً الى الحد الذي لا يفهم فيه الارض!

وفي المساء.. حمل حمدان بندقيته العتيقة، وسار مع ابيه ومع اخته صوب دار السيد علي..

لم تكن تعتقد السيدة زينب ان حمدان سوف يقتل السيد علي. كانت تعتقد انه يريد تهديده فقط، لذلك فلقد فوجئت عندما سمعت اصوات طلقات نارية.. وكان عليها ان تصبر طويلاً قبل ان ترى زوجها يدفع الباب مرتجفاً، وهو يصيح بصوت مبحوح:

ـ لقد مات..

وخفق قلبها بخوف رهيب.. ترى أي شيطان دفعها لكي تسأل:

ـ مَنْ؟.. السيد علي؟..

وأي إله جعل جواب زوجها المبحوح:

ـ لا.. حمدان!

وأحست بدوار وبصمت مطبق من حولها كأنها لم تسمع كلاماً في حياتها قط.. كأن أذنيها ترفضان سماع شيء على الاطلاق.. وكمن يحلم سمعت صوت زوجها يأتي من خارج دنياها:

ـ انفجرت الرصاصة الاخيرة فمزقت صدره ووجهه.. لقد مات.. مات..

ولكن السيدة زينب لم تتحرك.. ورأت زوجها كالذي به مس جنون يجمع ادوات الحفر.. حفر قبر ولدها.. ورغم ذلك فلقد بقيت خارج الدنيا.. كانها مجرد لوحة معلقة على جدار كبير، تنظر دون ان تفهم... ثم رأت جثة حمدان مغطاة بطبقة جافة من الدم.. وفوق

رأسه ليلى تنوح بصمت راجف. . ولكنها لم تتحرك. ورأت الجثة تحمل على كتف زوجها الى خارج الدار، وعندما عاد زوجها وفي عيونه دموع رجل لم يبك قط، فقط عندما عاد زوجها مغبراً من تراب القبر الجديد. . فقط عند هذا، وقعت على الارض. . . كأن يداً جبارة قطعت خيط اللوحة المعلقة على الجدار الكبير. . فسقطت.

ولكن السيد علي لم يمت. . وقدر لها ان تراه، مرة اخرى يعطيها مبلغاً كي تعيش به اذا ما غادرت الارض. . وتصورت لحظتذاك انه انما يعطيها ثمن ابنها. . وهمت ان تبكي ولكنها خافت ان يكشف امرها. . ولأول مرة عرفت كم هي قاسية ومؤلمة اللحظة التي يريد ان يبكي فيها الانسان، ورغم ذلك، فهو لا يستطيع. . لقد شاهدت النقود تطير بفعل الريح. . ولكنها لم تتحرك. . وبدت لها بوضوح حقارة المثل الذي يقول «من لا يملك قرشاً لا يساوي قرشاً.» وودت لو ينهض السيد علي كي تنفجر ببكاء مر طويل. . ولكن السيد علي لم يتحرك. . وتجلدت طويلا. . الى اللحظة التي غادر فيها السيد علي متكئاً على ذراع خادمه. .

***

وها هي ذي تراه من جديد يهبط السيارة بجرح طويل محفور في صدغه وعنقه. . ليست تدري لماذا لم تبرح ذهنها صورة السيد علي وهو يحاول ان يخفي الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه. . واعتقدت، وهي جالسة تفكر، ان السيد علي يخجل من هذا الجرح، وانه يراوده شعور بالخزي كلما وقف امام المرآة كي يحلق ذقنه، الى حد يود فيه لو يبصق على صورة وجهه المطبوعة في المرآة.

ولأول مرة، مذ غادرت أرضها، احست بشيء من الراحة لأن السيد علي لم يمت. . وانه ما زال حياً، يحدق كل صباح بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه، ويتذكر الارض التي باعها. .

وقالت في ذات نفسها وهي تنظر الى الطريق:

ـ سوف يتيسر للسيد علي ان يرانا نعود الى الارض التي باعها. . سوف يشعر يومها ـ وهو يحدق بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه ـ ان هنالك شيئاً اقسى من الموت. .

اقسى بكثير. .

الكويت ـ ١٩٥٨

العطش

آه لو يستطيع الرجل الكئيب ان يذهب! الى اين؟ هذا لا يهم. . فقط لو يستطيع ان يذهب. . دار في مربّع الجدران دون غاية، ثم سقط فوق السرير. . النغم الباكي من الاسطوانة لم يعد يصل الى صدره. . انه يلمس جلده البارد ثم يرتد ليلتصق بالجدار. . كيف استطاع ان يعتقد ـ في يوم مضى ـ ان النغم هو كل شيء؟. كيف؟

في يوم مضى! . يبدو ان الماضي كان لانسان آخر. . اما هو، آه! انه يحمل هذه الجدران الاربعة على كتفيه منذ ولد. . يحملها اينما ذهب. . حتى حينما يضحك فلسانه الخشن يجري فوق الجدار. . منذ متى وهو يحمل هذه الجدران؟ ليس يدري، ربما قبل ان يولد. . ربما الان فقط. . نهض عن السرير وادار مفتاح الراديو. . الصوت يدوي الآن في الغرفة زاعقاً كمليون بومة كئيبة. ورغم ذلك فانه ما زال يلمس جلده، ثم يرتد الى الجدار. .

اتذكر ايها الكئيب يوم سمعت هذه القطعة لاول مرة؟ كيف حملت اليك الشعور بانك ملقى في دوامة من تدفق لا تريد ان تغادره؟ ماذا حدث لك؟ هل تذكر كيف كان البوق الفاجع يهز عروقك والطبل يدوي في حلقك؟ لا تنهض! القطعة نفسها. . . نفس التوزيع. . نفس الفرقة. . بل نفس شركة التسجيل. . هل تريد ان تقول انها تغيرت؟ الكذبة لا تنفع. .

عشرة فناجين قهوة بلا سكر. . . علبة سجائر كاملة . . الف مرة خرجت الى الشرفة ثم عدت . . هل تذكر كم مرة دورت ابرة الراديو؟ كم مرة غيرت الاسطوانة؟ كم مرة حاولت ان تشرب جرعة من الخمر الذي تخبئه في خزانة الملابس؟ لماذا لا تجلس على طرف السرير وتضع رأسك بين كفيك، وتعترف بهدوء: «انا غريب!»؟

صوت البوق شيء فاجع! ورغم ذلك فانه ليس هنا . . كأن صدرك صفائح قصدير يضربها الصوت ويرتد مرنّاً كشيء تافه الى الجدار. . . كأنهم يعزفون على سطح بناء شامخ لاطفال الملائكة المشغولين بنتف ريش اجنحة بعضهم بعضا. . قم . . اخرس عواء البوق، واطفىء الضوء، واغرز رأسك في احلام وسادتك . . لا تستطيع؟ اتعرف لماذا؟

منذ دفع اليك صديق مجدور الوجه كتاباً لاول مرة في عمرك بدأت قصتك . . كنت مراهقاً. لم يشغل بالك بطل القصة يومها بل مؤلفها. . ورغبت في ان تكون مثله. شيء جميل. . ولكن كيف؟ انك انسان لا يجرؤ على مواجهة نفسه. . ومثل لك فشلك ان ما يلزمك هو التجربة. لماذا افتعلت الاشياء؟ لماذا لم تجلس - يومها - بهدوء، وتعترف بانك فشلت؟.

اهلك يحدون حريتك؟ اتركهم. . اصدقاؤك يضحكون؟ اهجرهم. . عملك لا يعطيك التجربة؟ استقل! ثم ماذا؟ انت الان تحمل جدرانك الاربعة وتمشي كانسان من جبس. . لماذا لم تعترف من الاساس بان الكذبة الكبيرة كانت من صنع فشلك؟ انت حسبت انك لو تصرفت بصورة مغايرة، لكنت نتاجاً مغايراً! اية كذبة!. . القَ بعقب السيجارة، البيت لن يحترق. . حتى لو احترق فسيبقى فوق

رأسك . .

ايها الرجل الكئيب . . هناك ما نسيته . . لن اقول لك ما هو.تجول في الغرفة كقطة محبوسة في خزانة طعام فارغة . . أتعرف ماذا نسيت؟ ان تعيش حياتك انت، لا حياة اخرى.

لماذا قلبت الاسطوانة؟ انت لا تعرف كيف تسمع . . الف عجلة سوداء تدور في اذنيك من الداخل . . اشعل لفافة اخرى.

انت تعيش وحيداً الآن . . اليس هذا الذي اردته؟ هل كان من الضروري ان ينقطع الماء عن منزلك لتكتشف انك وحيد؟

امس، قام الرجل الكئيب ليشرب . . وحينما فتح الصنبور خرخر صوتُ عميق، ولم تنزل اية قطرة . . كان العطش يمسك باصابعه الغليظة الجافة حلقه . . كيف يشرب؟ شيء سخيف . . ولكنه يريد ان يشرب . . ثم صحا في منتصف الليل اشد عطشاً . . لو كان في الغرفة انسان اخر لقال له متأففا: «اريد ان اشرب». ليس من المهم ان تشرب. المهم ان تجد من تقول له انك تريد ان تشرب . . انك ظامىء . . اكان من الضروري ان يحدث هذا لتكتشف انك انسان ملقى في الفراغ؟

انا اعرفك! انت انسان يكره ان يندم . . ولذلك سوف لن تقول لأحد انك تحمل الجدران الكئيبة معك . . غداً سوف تصحو وطعم المرارة يعلك لسانك . . لن يقول لك احد كيف نمت . . سوف تتناول فطورك في مطعم حقير . . وسوف تركض باحثاً عن انسان تجلس معه . . أي انسان تجلس معه، لتسمع صوتاً موجهاً اليك عبر

الجدران. . انا اعرفك. كبرياؤك القبيحة تلجم لسانك. . سوف يسألك هل انت سعيد؟ وسوف تقول: انا أحب الوحدة.

ايها الانسان الكئيب. . لا تتعب نفسك. . لا تبحث عن اسطوانة اخرى. كل الاسطوانات من عجين، هل خطر في بالك لحظة ان كتبك الكثيرة تتكىء على بعضها كبنات رصيف بارد؟ . .

غداً، ايها الانسان الكئيب، لن تكون سعيداً، الانسان الذي سوف تجلس معه لن تسمع كلمة من كلماته. . انت تبحث عنه فقط كي تقول له، كأنك تحكي شيئاً عابراً:

- «امس انقطع الماء عن منزلي. .»

بيروت ١٩٦١

المجنون

انا اقرفصُ وراء المنعطف بخمس خطوات واسعة، اضع كوعيّ على ركبتيّ، واركز ذقني على راحتيّ، واغمض عينيّ قليلاً، واتطلع الى الناس، ولكنهم لا يرونني.

اقرفص هنا منذ لم أعدْ كلباً صغيراً، هذا المكان لي، ليس من انسان يقرفص فيه سواي، ان احداً لم يجده حتى الآن . . آتي اليه في الصبح، واظل مقرفصاً حتى تسقط الشمس وراء سطح بيت الولد الاشقر . . يأتي الولد الاشقر، يمشي ببطء على رؤوس اصابعه، اراه من طرف عينيّ، لا ادعه يراني ابداً، يصل الى المنعطف، يضع الطعام، ويركض الى درج بيته. يفتح الباب ويبقى ينظر اليّ حتى اقوم فآخذ الاكل وارجع الى مكاني مسرعاً فيصيح: «متى ستصبح كلباً مرة اخرى؟» هذا المكان لي، انا لا ارد عليه . . . انا لا انام الا بعد ان يؤذن العصر، انا اعرف المؤذن ولكني احرص على ان لا يعرفني، انا انام في العصر لأن الناس لا ينامون وقت العصر لذلك فانا الوحيد الذي ينام وقتذاك في كل العالم . . حينما انام اغمض عينيّ، واسند رأسي الى الحائط، واحلم احلاماً رائعة، مرة حلمت ان بقرة قدمت الي قطعة جبن لانني كنت جائعاً وحينما اكلتها شعرت ان طعمها يشبه طعم الحليب، واخذت البقرة تضحك ثم هربت وتركت ذيلها ملقىً على كتفي . . . مرة حلمت اني

اقف امام قطة صغيرة حلوة . . تطلعت اليّ القطة فخافت، ثم اخذت تركض وتبكي . . لقد كنت انا الاخر خائفاً ثم صحوت فجأة فاذا بي قد غادرت مكاني فعدت مسرعاً اليه، وكان الاطفال يقفون الى جانب المنعطف ويصيحون باصوات رفيعة : «متى ستصبح كلباً» ولكني لم اهتم بهم، كان الوقت عصراً لذلك عدت الى النوم ولم اسمع صياحهم . . يوجد كلب يمر دائماً قبل العصر، في عينيه يقعد دائما رجل صغير عيونه واسعة وفمه مفتوح، الكلب لا يعرف شيئا . . لو عرف متى اقوم لأتى واقعى في مكاني . . آهٍ لو اتى يوما في الليل ولم يجدني، فسيقعي في مكاني ، وعند الظهر سوف يأكل الولد الاشقر اذا احضر له الطعام . . اذا اتى الكلب، اذا اقعى في مكاني، فسألقي على رأسه حجراً صغيراً . لن القي على رأسه حجراً كبيراً. لاني اريده ان يبقى كلبا . . . انا لا احب الكلاب، امي تحب الكلاب . . لقد تزوجت كلبا ذات يوم، ثم طلقها لانه ذهب مع كلبة اخرى . .

كلهم كانوا كلاباً . . كلاباً ذات شعور سوداء، وعيون واسعة، وانا ـ ايضاً ـ كنت كلباً صغيراً، قبل ان تنبت لحيتي، الكلاب لا تنبت لحاها . .

كلباً صغيراً . . كيف كانت الدنيا يومها! كنت أحمل حقيبة صغيرة واذهب الى المدرسة، وعندما أعود كانت امي تربت على ظهري وتبتسم . . وكان ابي يبتسم . . كلباً صغيراً، والحياة جميلة . . كنت أحب الجميع . . وكان عندنا حديقة، وكنت احبها . . كنت آكل كل يوم مرات كثيرة، وكانت امي تحبني كل يوم . . وكان ابي يحبني ايضاً .

الولد الاشقر، انه ليس كلباً، مرة قال لي: هل كنت كلباً ام انك كنت قطة؟ ثم ركض قبل ان أقول له اني كنت كلباً. . ولم أكن قطة ابداً. . انا احب القطط. . لا يوجد كلب يحب القطط. . انا متأكد اني كنت كلباً. . انه يحسب اني كنت قطة! كلا، انا لم أكن قطة في يوم من الايام، ربما اختي كانت قطة. . اما انا فلم أكن ابداً. . نعم. . هذا مؤكد. . اختي كانت قطة. . والكلاب لا تحب القطط. . كل الكلاب لا تحب كل القطط.

كان في دارنا قطة صغيرة، وكان الجميع يحبونها. . وانا ايضاً كنت أحبها أحياناً، رغم اني كنت كلباً. . وكانت القطة مرة واقفة على بركة بيتنا. . بركة كبيرة كأنها بحر كبير. . ولكن الكلاب لا تحب القطط. . حتى القطط الصغيرة الحلوة، اقترب الكلب الصغير على رؤوس أصابعه، القطة لم تره، ثم وصل اليها دون ان تحسّ. وسمعها تقول: «كغ. . غ. . غ. .» وتنظر الى الماء. . دفعها بيديه فسقطت في البركة. . القطط لا تعرف السباحة كالكلاب. . فأخذت تصيح، وتنادي، ولكن الكلب لم يهرب. . لأنه لا يحب القطط.

لقد خاف الكلب قليلاً. . نعم، لقد خاف، ولكن القطة لم تعرف انه خاف، وبقيت تصيح وتزعق. .

امي كانت تحب القطة. . تحبها كثيراً. . لقد أتت راكضة، وكانت القطة تخرج فقاقيع ماء صغيرة الى فوق. . أخرجت امي القطة ونظرت اليها ثم أخذت تبكي بصوتٍ عالٍ وتمزق ملابسها وتدور حول نفسها. . كنت يومها كلبا صغيراً ولكني لم أخف كثيراً. . نظرت اليّ امي، ثم ضربتني على رأسي فركضت الى الباب. .

لماذا تحب امي القطط؟ لم تتكلم معي ابداً بعد ذلك اليوم، ولم تعد تربت على ظهري . . كنت اعود من المدرسة فأضع الحقيبة الصغيرة، واذهب على رؤوس اصابعي ماشياً الى الحديقة واصيد ذبابا ملونا اضعه تحت كأس زجاجي مقلوب . . كلهم كانوا ينظرون الي بعيون حمراء . . وكنت انا لا اخاف كثيراً . . ولكنني بقيت كلبا . . كانوا يضربونني كل يوم مرات كثيرة، كانوا يضربونني على رأسي، دائما على رأسي . . وكانوا يقولون وهم يضربونني: «قتلتها ايها الكلب . . » مرة ضربتني امي على رأسي بكرسي كبير فأخذ الذباب الملون يبكي . . وكنت انا ايضا ابكي . . ولكنني بقيت كلبا . . مرة ربطني والدي بحبل مبلول ورماني في الحديقة الى الصبح، وفي الليل نزل المطر فكبرت قليلا . . وعند الصبح اتى رجل له لحية صغيرة وقال لأبي: «حرام!» وكنت انا جائعاً، ومقروراً، وابكي، ولكنني بقيت كلبا صغيراً . . كانت امي تضع الطعام على حافة البركة ولاتقول لي «هذا لك» . . مرة لم آكل . . كنت جائعا ولم آكل، فألقت امي بالطعام الى الماء . . واخرج الطعام فقاعات ماء صغيرة الى فوق . .

كنت كلبا صغيراً ابكي كل يوم . . كنت ابكي وانا نائم، وكنت احلم دائما ان ولداً صغيراً يبكي كل النهار والليل وكانت دموعه ذات طعم كشراب الليمون . . وكانت امي تقول لي عند الصبح: ارجو من الله ان يأخذك . . امي تحب البكاء . . عندما ماتت اختي بكت امي كثيراً حتى اصبحت عيونها كبيرة وسوداء . .

مرة قالت امي لأبي انها تريد ورداً لتأخذه الى المقبرة . . وقالت انها تريد ان تضعه على قبر اختي، خرجت انا الى الحديقة وقطفت زهرة

صفراء كبيرة واحضرتها الى امي كي لا تبكي.. وكي تضحك.. ولكن امي اخذت الزهرة الصفراء، ورمتها، ثم ضربتني بكرسي كبير على رأسي.. ذهبت الى الزاوية، قرب البـاب، وجلست على البلاط.. كنت كلبا صغيراً، فاخذت ابكي، ثم نظرت الى البلاط وقلت: «يا رب! انا لا اريد ان ابقى كلبا صغيراً» بعد ذلك، رأيت كلابا صغيرة كثيرة، كلابا صغيرة جداً، كل كلب منها اصغر من الاصبع، وقفت الكلاب على البلاط امامي وقالت: «لماذا لا تصير ولداً؟» قلت: «نعم اريد ان اصيرولداً. .لا اريد ان ابقى كلبا لا يحب القطط..» قالت الكلاب: «هل تأتي معنا؟» كانت كلابا صغيرة كل واحد منها في حجم الاصبع.. قلت: «ولكن اين تذهبون انتم؟» قالوا «تعال معنا» قلت «ولكنكم صغار جداً..» قالوا «نعم، كي لا يرانا احد» قلت «حسنا، سوف آتي معكم» قال اصغر كلب فيهم، وكنت لا استطيع ان اراه لصغره: «افتح الباب.. نحن صغار جداً ولا نستطيع فتحه..»

قمت.. فاذا بي لم اعد كلباً.. ولم تعد لي امُ بعد ذلك.. فتحت الباب وخرجت الى الزقاق.. لم يرني احد.. مشيت، ومشيت.. دون ان يراني احد.. لقد مشيت كثيراً حتى تعبت امي.. ثم تطلعت الى الكلاب الصغيرة فلم اجدها، لقد ضاعت بين الاعشاب.. وصلت الى هذا المكان، لم يكن احد قد وجده فجلست، انا اجلس القرفصاء كي لا يتسخ ثوبي.. ولا اترك مكاني ابداً.. الكلاب الصغيرة لم ارها ابداً بعد ذلك.. مرة رأيت كلباً صغيراً ولكنه أكبر من تلك الكلاب.. قلت له: «هل كنت صغيراً وكبرت؟» قـال «نعم» قلت «اين اصدقاؤك، هل كبروا؟» قال «نعم» قلت «اين ذهبوا؟» قال: «كل

واحد منهم وجد مكانا» قلت «وانا ايضا وجدت مكانا» قال «حسناً» قلت: هل سأعود انا فأصبح كلبا؟» قال «كلا».

يقف الاولاد قرب المنعطف ويقولون: «هل ستصبح كلبا؟» انا لا ارد عليهم، انهم صغار جداً وهم يخافون من الكلاب.. وانا ايضا لا احب الكلاب.. ولا احب القطط.. انا لا احب شيئا الا مكاني.. الاطفال الصغار رائعون، ولكني لا احبهم.. وايضا انا لا احب ان اضربهم. الولد الاشقر، يحضر لي الطعام ويقف بعيداً، هو لا يراني لاني لا انظر اليه، فاذا تعب من البحث عني يناديني.. وحينما يذهب آكل الطعام كله واغسل الصحن بعناية، واضعه في مكانه الى جانب المنعطف، مرة لم آكل.. انا احب الولد الاشقر.. وقف بعيداً ثم صاح: لماذا لم تأكل؟ قلت دون ان انظر اليه: لاني لست جائعاً.. فذهب دون ان يقول لي «هل ستعود فتصبح كلبا؟» كما يقول دائما، وحينما اغلق الباب كنت مسروراً.. لانه لم يقل ذلك..

وضحكت كثيراً.. حتى سمعت آذان العصر.. فنمت.

بيروت ١٩٦١

ثماني دقائق

خرج السيد علي متعبا من عمله، ورغم انه اعتاد ان يقطع المسافة من الدائرة التي يعمل فيها الى بيته ماشيا.. إلا انه فضل ان يستأجر سيارة تقله الى هناك. وطوال الطريق كان ما زال يفكر بالقضية التي شغلت كل نهاره: متى يختار ايام اجازته؟ وكيف يقضيها؟ واين؟ في كل عام لا بدّ لهذا الموضوع ان يأخذ حيزاً كبيراً من الوقت، وحينما وصلت السيارة الى باب العمارة الكبيرة، عد للسائق اجرته، وهز رأسه للبواب بشيء من الكبرياء، وتوجه الى المصعد..

هناك، وهو واقف ينتظر هبوط التابوت، كما كان يسميه، جاءته المفاجأة التي لم يكن يتوقعها: نسي مفاتيح البيت! ثم تذكر كيف تركها على طاولته في المكتب.. ما العمل؟ سأل نفسه بحزم، ودار دورة صغيرة على عقبيه.

- ماذا حدث يا سيد علي؟

- لا شيء.. لا شيء يا تيسير، فقط نسيت المفاتيح.

- استطيع ان افتح الباب من الداخل، يا سيد علي، ولكن هل تذكر انك تركت ابواب شرفتك مفتوحة؟

ـ ابواب الشرفة؟ انت تقصد انك تريد ان تقفز من الشرفة المجاورة الى شرفتي؟

ـ نعم.

أجاب البواب بهدوء، فانزاح عن جبين السيد علي خوفُ الاقتراح الجريء.. ان يقفز الانسان من شرفة الى شرفة في الطابق التاسع ليس لعبة جميلة، فالجدار الذي يفصل بين الشرفتين جدار ناتىء الى خارج العمارة مما يجعل الدوران حوله ـ على ذلك العلو الشاهق ـ امراً يبعث على الدوخة.. ولكن لهجة تيسير كانت تحمل هدوءاً عجيباً، فاندفع السيد علي يقول:

ـ نعم.. لقد تركت ابواب الشرفة مفتوحة، انا متأكد اني تركتها كذلك..

ـ ١ ـ

.. وصل المصعد، ففتح تيسير الباب، ثم تركه ينغلق وراءه كانت الساعة العتيقة في معصمه تشير الى الثانية وسبع دقائق، وكان العقرب الاحمر يدور على محوره كشيطان صغير، اسقط ذراعه على فخذه باهمال، ثم أخذ يحدق الى وجهه بمرآة المصعد المكسورة، كان في حلقه مذاق زيت القطن، وشعر بأن تنفسه ثقيل بعض الشيء.. «لا، انا لست خائفاً..» هز رأسه في مواجهة المرآة، وابتسم ماداً شفتيه الى أقصى ما يستطيع، ثم فرد ذراعيه واستند بهما الى جداريّ المصعد واخذ يحدق، منحنياً بعض الشيء، الى الدوائر الزرقاء المرسومة حول عينيه.

كانت في رأسه فكرة ملفوفة بشرنقة من حرير بنفسجي، وكان يدور

حولها دبّور يستمتع بالانتظار، ولكن الفكرة كانت هناك، وكان الدّبور عاجزاً، بملء رغبته، عن الوصول الى ما في داخل الشرنقة. . عما قليل سيصل الى الشقة ـ رقم ١٣ التي لم تؤجر ولا حتى لنصف يوم. وفي طريقه الى الشرفة سوف يمر بباب الحمام، هناك، لا بد ان يجد صرصاراً في ركن ما، مقلوباً على ظهره متظاهراً بانه ميت، ثم سيصل الى غرفة النوم، وسوف يجد كرات صغيرة من الغبار ملتفة على هيكل من الشعر. . من اين يأتي الشعر الى غرفة لم تسكن قط؟ ثم سيدور مقبض باب الشرفة الزجاجي. . لا، يحسن ان لا يفكر بهذا الامر.

«انت خائف يا تيسير!» عقد ذراعيه على صدره وفكر: «ان المصعد يزحف صاعداً ببطء قاتل كأنه ثعبان بلا ذيل، لا بد من اصلاحه ذات يوم» كان يعرف ان كل ذلك ليس الا رغبة في الابتعاد عن الشرنقة البنفسجية، وكان خائفاً من الاقتراب منها اكثر. . لذلك حاول ان يتمسك بفكرة اخرى، كانت فكرة سخيفة: ماذا لو يظل المصعد يرتفع بلا توقف، يصل الى السطح، ثم يظل يرتفع، بلا توقف، «ارأيت يا تيسير؟ انت خائف! .» عاد فنظر الى المرآة، وابتسم ابتسامة واسعة مستشعراً رغبة عريضة في ان يمد لسانه، ولكن المصعد توقف، واخذ قلبه يخفق: «هذا لان المصعد وقف فجأة» قال لنفسه: «دائما يحدث نفس الشيء» سوف أضع يدي اولا على الجدار الفاصل بين الشرفتين، ثم ارفع ساقاً واحدة، واضع قدمي على حافة الحاجز الحديدي الازرق، ثم اضع كفا على الطرف الآخر من الجدار الفاصل، هنا، لا بد من ان انقل الساق الاخرى فاضعها تحت الحاجز حتى يتيسر لي ان انقل الساق الاولى الى الحاجز الآخر، نفض رأسه، ودفع باب المصعد، ثم أخذ يفتش في جيوبه الواسعة على مفتاح الشقة ١٣، الشقة التي لم

تؤجر ولا حتى لنصف يوم. وشعر بخيبة امل صغيرة حين كان مفتاح الشقة بالذات هو اول مفتاح اخرجته يدُه.

وطوال الطريق الى الشرفة حاول ان لا يفكر، كانت رأسه مملوءة بغبار ازرق شفاف، ترنم باغنية صغيرة، ثم صمت واطبق شفتيه بحزم، وحينما وضع كفه على مقبض باب الشرفة كان الدّبور الملون قد اقترب من الشرنقة البنفسجية اقتراباً شديداً واخذ يحوّم فوقها مباشرة: «اتدري لماذا لم يستأجروا هذه الشقة ولا حتى لنصف يوم.؟ لانها تحمل رقما مشؤوماً نعم، هذا هو السبب، انها شقة مشؤومة..» شعر برغبة في ان يفلت قبضة الباب ويعود ادراجه، الا ان ذلك كله لم يكن معقولا، هز رأسه مراراً، وسحب المقبض بسرعة، وخطا متعجلا الى الحاجز الازرق.

ها هو ذا الطابق التاسع! هكذا فكر وهو ينظر الى تحت، الا ان كل شيء كان كالمعتاد.

شاهد السيد علي يقف على الرصيف واضعاً يده في جيبه، وفي يده الاخرى صحيفة اخذ يضرب بها فخذه.. وكانت ثمة سيارة صغيرة تبدو كأنها كلب مضغوط..

الآن، ليس في رأس تيسير سوى الشرنقة البنفسجية، والدبور فوقها، يحوم مطنّا دون ان يصل الى تمزيقها لاكتشاف ما فيها، وكان يئز ملوّناً، مستمتعا بالانتظار، وكان تيسير مرتاحا للشرنقة وللدبور، غير راغب بان يقترب احدهما من الآخر اكثر.. مدّ صدره فوق الحاجز وحاول ان يتطلع الى الشقة الاخرى ليرى ما اذا كان الباب مفتوحاً، الا انه لم ير شيئاً. عاد، فنزع سترته، ثم نزع حذاءه، ونظر مرة اخرى الى

الطريق: حسناً، يا تيسير، انت لست خائفاً، ولكن لماذا كل هذا؟

«السيد علي رجل طيب.. يجب ان اخدمه»، طوى سترته وذهب فوضعها الى جانب الحذاء في الناحية الاخرى من الشرفة، ثم عاد، هز حديد الحاجز بعنف، واطمأن الى ان الحاجز لا يتحرك، ونظر الى فوق، ليس ثمة ما يمسك به «مرة احضرت له بعض الاغراض، شيئاً من البرتقال والموز، فاعطاني خمس ليرات وابتسم.» رفع قدمه، ووضعها فوق الحاجز، ووضع كفه على الجدار، كانت السيارة تحت ما زالت تبدو ككلب مضغوط ميت، وكان السيد علي ينظر تجاهه. «اذن! اذن هكذا! انت تقوم بكل هذا كي تفتح له الباب فيمد يده بعشر ليرات، او ربما خمس اهذا هو كل شيء؟ ثمن الحلق المنقوش بالنحاس ست ليرات، لقد وعدتها به.. اختك لم تضع في اذنها حلقا قط.. كم عيدا مر وانت تعدها بالحلق؟. ولكن، لو اعطاك خمس ليرات فقط؟ لو لم يعطك شيئاً؟» نقل يده الى الناحية الاخرى من الحائط، وكانت، ثمة، لحظة جرأة صغيرة رفع فيها قدمه الثانية عن الارض، وبقيت معلقة بالهواء هنيهة، مد خلالها جسمه ببطء وصلابة، كعقرب على حافة شيء، والصق صدره بالحائط الخشن ثم تحسس بكفه الاخرى الطرف الاخر من الجدار، ماداً اصابعه مثنية بعض الشيء، ببطء وتصلب وحذر، وفكّر: «لا بد من لحظة جرأة اخرى انقل فيها قدما الى هناك»، وكان يبدو لنفسه وكأنه مصلوب، كعنكبوت بانتظار قوة مفاجئة تحمله الى مكان آخر، زحزح ساقيه: دقيقتين قاسيتين، ورغب في ان ينظر الى تحت، فلوى رأسه بهدوء، وكان السيد علي صغيراً جداً.. وفجأة، وصل الدبور الملون مطناً، وحطّ على الشرنقة، فمزقها بعنف وهياج: «ماذا لو زلقت قدمك يا تيسير؟».

- ٢ -

. . حينما اغلق تيسير باب المصعد ادار السيد علي ظهره، وخرج الى الشارع: «تيسير ولد شجاع. . العمل بالنسبة له شيء عادي». رفع رأسه الى فوق، ولكنه لم يكن متأكداً من ايما شيء، كان في غاية التعب. . فأخذ يعد الطوابق حتى ركز بصره على الطابق التاسع. . «هناك شرفتي كان عليَّ ان اعرفها من المنشفة الخضراء المعلقة على الحبل. .» لم يكن تيسير قد وصل بعد، وتذكر ان المصعد في هذه العمارة بطيء بشكل مخزٍ، إلا انه عاد، فأخذ يتصور كيف تجري الاشياء دون قصد. . كان مرة ينتظر المصعد، حينما شعر بأن انساناً يقف خلفه، التفت، كانت جارته واقفة هي الاخرى بانتظار المصعد. . وكانت هذه هي المرة الاولى التي التقيا فيها. . وصل المصعد. . ففتح لها الباب ثم دخل هو الآخر: «لا بد من ان اقول كلمة، يجب ان ابدأ علاقة ما. .» كان الضوء الاحمر يشير الى ان المصعد وصل الى الطابق الثالث، وفكر ان عليه ايجاد كلمة مناسبة حتى لا يضيع الوقت. . واخيراً، وجدها:

- انه ابطأ مصعد رأيته في حياتي!

نظرت اليه، وكانت غمازتها حبلى بابتسامة صغيرة. ثم هزت رأسها:

- فعلاً!

- أتعرفين؟ كنت اعتقد ان ثقل دمي انا هو سبب بطء المصعد. . اما

الآن . .

ابتسم، وأشار اليها، فابتسمت، وأرخت حاجبيها فوق عينيها، وصمتت. . توقف المصعد. . ففتح الباب هازاً رأسه تحية موجزة. وقبل ان يخطو الى خارج المصعد سمع صوتها هادئاً:

ـ أرجو ان تنسى حكاية ثقل الدم. .

شاهدها تبتسم حينما التفت، ثم انغلق الباب، وارتفع المصعد. . ايه! لقد كانت فرصة رائعة. . يومها، حدثها بالهاتف مدعياً انه كان يريد طلب شقة اخرى. . وفي الحديث قطع شوطاً جديداً. . وعند الظهر استدعى تيسير وطلب منه ان يشتري له موزاً وبرتقالاً. . ثم اعطاه خمس ليرات كي يأمن جانبه اذا ما لاحظ امراً بينه وبين جارته. .

رفع رأسه الى فوق وبحث لهنيهة عن المنشفة الخضراء. . . لم يصل تيسير بعد. . رفع رأسه أكثر، الى الطابق العاشر، فوجدها واقفة هناك. . كانت تلبس قميصاً ابيض اللون، في لون الحليب، وكانت تتكىء بكوعيها على الحاجز الحديدي الازرق وتسند رأسها على كفّيها، وكانت ـ بلا شك ـ تنظر اليه. .

رفع يده الى رأسه فردت تحينه. . . واعتدلت في وقفتها. . انها امرأة رائعة وضعت الامور في نصابها منذ اول لقاء. . قالت له يومها: «كل الذي اريده منك، هو كل الذي تريده مني، فلا تجعلها قصة كبيرة. . ».

وصل تيسير فأطل من فوق الحاجز الازرق، ثم خلع معطفه وانحنى ليخلع حذاءه حينما اشارت المرأة، من فوق، تسأله عن الحكاية، وتولى

شرح الموضوع بالاشارة باذلاً جهداً كاملاً ليبين لجارته الحسناء كل ما في حكاية تيسير، وحكاية وقفته تحت..

«ماذا لو وقع تيسير؟» سأل نفسه السؤال فجأة، ثم ما لبث ان استبعده بعنف.. انه ولد شجاع، من يدري، ربما لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يقفز فيها من شرفة الى شرفة..

لو سقط، لشغل من وقتي ما يعطل عليّ اجازتي.. ومرة اخرى لم تعجبه الفكرة فقال بصوت خافت (لا شك اني حقير. أقارن اجازتي بموت انسان) ورغم ذلك كان يحس انه لا يريد ان يفقد اجازته، وان وجودها، هناك، هاجعة في الشرنقة البنفسجية دون أن تمس، امر يبعث في اطرافه خدر سعادة لا توصف. أوشك تيسير على تخطي الحاجز، وشاهده ينزلق بطيئا: يداً في الفراغ والثانية ملتصقة على وجه الجدار، ثم يدور جسده: بطيئا حذراً، ويصبح الامر كله على وشك ان ينقضي لو تبدأ الساق اليمنى بالتحرك، في هذه اللحظة دار عنق تيسير وخيل للسيد علي انه ينظر اليه، ود ان يرفع له يده محيّياً، الا انه شاهد، في نفس اللحظة تقريبا، قصاصة ورق بيضاء تتموج ساقطة ببطء امام تيسير، متأرجحة كجناح منبسط صغير، بشيء من النشوة، ثم شاهد جارته تشير الى الورقة بحركة فهم منها انها رسالة اليه.

***

قرأ السيد علي الورقة بلهفة، ثم توجه الى المصعد، كان تيسير، في تلك اللحظة، قد دار حول نفسه واجتزأ المسافة الباقية بقفزة جريئة سقط اثرها على شرفة السيد علي، وتوقف هنيهة، تنفس الصعداء، كانت ثمة قطرات من عرق مالح تبلل أطراف شفتيه وكانت كفاه أيضا مبللتين بالعرق، أخذ نفسا طويلا، كان ألم صغير - كدبوس - يدغدغ

أصابع قدميه، دفع باب الشرفة، كان رأسه خاليا من كل شيء وكانت في صدره رغبة حارة لبكاء بلا دموع، وخيل اليه ـ لمدى وهلة واحدة ـ انه آت من البحر بعد نهار كامل من السباحة.

وضع يده على مقبض الباب.. ثم شده فوجد السيد علي واقفا امامه:

ـ اهنئك يا تيسير.. كان عملاً رائعاً..

حاول تيسير ان يتكلم، ولكن طعم زيت القطن كان ما زال يغسل حلقه.. فهز رأسه وابتسم.

ـ تيسير، هذه خمس وعشرون ليرة.. اريدك ان تشتري لي زجاجة ويسكي صغيرة، وقليلاً من الفواكه، وتحتفظ لنفسك بالباقي.

ابتسم تيسير مرة أخرى، وحسب في رأسه بسرعة ما عساه ان يوفر: «سوف يبقى لي حوالي عشر ليرات». الا انه استشعر شيئاً من القرف.. وليس يدري لماذا رغب في ان يدير ظهره، ويمضي باقصى ما يستطيع من السرعة.

ـ لا تجعل وجهك كئيباً.. حينما تحضر الويسكي والفواكه، خذها رأساً الى الطابق العاشر، فوق.

غمز بعينه مرحاً، كان واقفاً في حلق الباب، وكان تيسير ينظر ـ دون ان يفكر ـ الى ورقة الخمس والعشرين بين كفيه.. ثم نظر الى ساعته، لمجرد انه لا يعرف ماذا يتعين عليه ان يفعل، كانت تشير الى الثانية والربع بالضبط، عاد فنظر الى وجه السيد علي، كان يبتسم وهو ينظر اليه، ثم مد يده، وأمسك طرف الباب، وصفقه، فانغلق محدثاً دوياً

جافاً، وعرك الورقة بين اصابعه وقفز درجتين دفعة واحدة، وغمز تيسير مرة اخرى قاذفاً الورقة البيضاء المكورة من بين اصابعه.

تدحرجت الورقة بين قدمي تيسير، فيما كان رأسه يدور في دويّ باب شقة السيد علي.. وهو ينغلق.

بيروت - ١٩٦١

القسم الثالث

أكتاف الآخرين
قلعة العبيد
ستة نسور وطفل
القط
الخراف المصلوبة

اكتاف الاخرين

في طريقي الى المطعم كنت اشعر بانني انما اسير في عالم جديد، كل ما فيه جديد، الهواء والشمس والناس، ولم يكن الشارع الذي اعتدت ان اجتاز كل يوم في طريقي الى المطعم شيئاً مألوفاً بعد، كان هو الآخر شيئاً جديداً، بدا لي كأنني امشي فيه للمرة الاولى. .

لو كنت اعرف ان الامور سوف تنتهي على تلك الشاكلة، وبتلك البساطة، لأنهيتها منذ زمن بعيد. . لقد كانت، ثمة، كلمة واحدة، وسقط الامر كله عن كتفي، واحسست بانني انطلقت من نافذة كانت موصدة، وصرت مثل بقية الناس. . كانت رئتاي قد اتسعتا، فجأة، واصبح التنفس، مجرد التنفس، عملاً في غاية المتعة!.

كيف حدث الأمر؟ يبدو لي الآن انه حدث تحت دفع قوة قاهرة، ليست انا، او هي انا في الواقع، ولكن دون خوف. لقد وقفت امامه في مكتبه وكنت اعلم انه انما استدعاني ليعيد على مسامعي ما ردده اكثر من اربع مرات في الشهور الخمسة الفائتة:

- يا رياض. . انت تهمل عملك الحزبي بشكل رهيب. . خمسة شهور ورأسك في مكان آخر، كأنك لم تعد معنا. . قلتها لك اربع

مرات، وما زلت اؤجل الانذار الاخير، لانك خامة صالحة..

هكذا يتحدث دائماً، هكذا كان يتحدث، نفس الكلمات التي كانت تجعلني ارتجف امامه: «بشكل رهيب!» و«رأسك في مكان آخر» و«خامة صالحة» كل ذلك بدا لي ساعتها شيئاً متهافتاً كزجاج سيء الصنع، ورغم ذلك فلقد كانت خيوط المطاط تشد لساني الى الداخل، وكنت ادوّر منفضة السجائر على طاولته محتاراً..

ـ ماذا دهاك؟. . هل تريد ان تترك الحزب؟

ـ نعم..

قلتها فجأة، ودون ان اقدر على ايقافها او تأجيلها او طليها بدهان آخر، ولكن ما ان قفزتْ من شفتيّ حتى تقطعت خيوط المطاط، وانفتحت النافذة، ولم اعد ابالي.. وحينما نظرت اليه كان قد صار رجلاً آخر، يقف هناك، لا يهمني، واحداً كالآخرين ليس له مقعد في رأسي او على كتفيّ..

كلمة واحدة فقط، وسقط كل شيء فوق البلاط وتلاشى.. وحينما صفقت الباب خلفي لم يكن ثمة ندم على الاطلاق.. وكان الناس على الرصيف المقابل، يمشون مثلي، دون ان تكون ثمة اثقال على اكتافهم..

ثلاث سنوات وانا احمل قدراً كاملاًعلى كتفيّ.. كأنني رجل ليس له في حياته من عمل سوى حمل ذلك القدر والمسير تحته على حصى وشوك، كأن الحياة، كلها، هي ان اكون حمالاً لحياة ليست لي.. وكان الآخرون، طوال تلك السنين الثلاث يعيشون حياة لهم، ليس ثمة

اثقال على اكتافهم ، مجرد الحياة، دون ذلك الارتباط الغبي الثقيل. . لماذا لم اختر الحياة مثلما اختاروها؟ هذا سؤال لم افكر به قط. . لقد نما في جوفي دون ان احس به، وحينما اصبح ناضجاً، سقط عن شفتيّ بارداً:

- هل تريد ان تترك الحزب؟

- نعم. .

وهأنذا خارج النافذة، مثل البقية، مثل الآلاف الذين شاهدتهم في الشارع يمشون على الرصيف المقابل، ذاهبين، وآيبين، سيان. . دون اي حزن، دون اي ندم. . غمرة، فقط، من ضباب بلا لون. . وحينما وقفت امام واجهة تعرض اربطة عنق ملونة، مرّ سؤال في رأسي: «ترى هل انا سعيد لمجرد اني تخلصت. . ام لانني تخلصت بسهولة، وبلا ندم؟» كانت اربطة عنق ملونة فاخرة، وكان السؤال سخيفاً ولا محل له. . وفي ركن الواجهة كانت ربطة عنق بيضاء منقوشة بنمش احمر، ملقاه ببراعة فوق اصداف فضية لامعة «ليس من الضروري ان يعيش الانسان وهو يؤمن بشيء ما يوقف عمره من اجله. . الحياة هي الحياة فقط، مثلما يعيشها الناس. . » وقف رجل اصلع الى جانبي واخذ ينظر الى مروحة من الاربطة كانت ملصوقة على الجدار الداخلي للواجهة، ممثلة جناحيّ فراشة كبيرة: «مثل هذا مثلاً، اعيش كما يعيش، غير ملاحق بايما شيء ثقيل. . »

وحينما تركت الواجهة. عاد الي الفرح بشكل اوضح، وكان الناس يمرون من جانبي، وكنت انا الآخر امر من جانبهم، غير ملاحقين بايما شيء، وعجبت كيف لم يتسن لي ان اكتشف روعة الحياة على هذه

الشاكلة، منذ زمن بعيد..

حتى (ابو سليم).. خادم المطعم العجوز، كان انساناً جديداً جديراً بالمراقبة، فرش امامي غطاء جديداً نظيفاً، وضم راحتيه فوق سترته البيضاء، ووقف ينتظر..

- سوف آكل اي شيء تضعه امامي..

ابتسم ابو سليم، كان شاربه الكثيف يخفي شفته العليا، وكان حاجباه الرماديان يتصلان فوق انف شديد الطيبة، وتشع تحتهما عينان صغيرتان، وبدت لي لحيته الخشنة القصيرة انها تحتفظ بطولها دائماً، وكانت صلعته الصغيرة، هذه المرة، تختفي تحت طاقية مطرزة بالوان خضراء وحمراء وصفراء.. «هوذا انسان يعيش هنا كما يريد.. تماما كما تعيش، الى جانبه، امواج البحر التي تضرب جدران المطعم السفلي كل دقيقة.. كالشبابيك الزجاجية التي تطل على الماء المتلاطم.. دون ان يحمل ثقل الآخرين.. ودون ان يلاحق بهم.. اعوام طويلة هنا، ولكنها اعوامه هو، كلها كانت له، ببساطة، وبلا ثقل..».

وعجبت كيف لم اكتشف ابا سليم قبل اليوم رغم اني اتناول طعامي كل ظهر في نفس هذا المطعم منذ ستة شهور.. حتى البحر، البحر الذي يلطم جدران المطعم لم انظر اليه قبل اليوم: كان مزبداً مرغياً غاضباً، الا انه كان، رغم ذلك كله، شيئا قريبا الى القلب ولا يخيف..

«استغني عن عشرين يوما من عمري لو قدر لي ان ارى سحنته مرة اخرى حينما قلت له (نعم).. عشرون يوما كاملا لو قدر لي ان ارى

استدارة عينيه المبغوتتين مرة اخرى. . »

رميت عقب السيجارة الى الماء، فطاف فوق الزبد هنيهة، ثم ضاع في الهياج الغاضب، واشعلت لفافة اخرى متطلعا الى الامواج وهي تحمل زبدها الى الجدران، ثم ترتد مهزومة لتنطوي داخل الماء وتضيع: «دعك من كل هذا. . اتريد ان تعيش حياة فارغة؟. مثل ابي سليم؟. عبث بلا مبرر. . » كان على الطاولة المقابلة رجل انتهى لتوه من طعامه، ومضى، متكئا، يدخل عودة خشبية صغيرة بين اسنانه: «انت سعيد لمجرد انك غيّرت، لا لأنك غادرت. . » صفق الرجل فركض ابو سليم تجاهه واخذا يتحاسبان. «دائما يحدث مثل هذا. . فكرة الى الوراء وفكرة الى الأمام. . ما الذي يمنع ان اكون كالبقية؟» وتصورت لوهلة انني عدت اليه، ووقفت امام مكتبه طاوياً كفيّ على بطني: (هأنذا لقد عدت ككلب!) كلا! هذا لن يحدث ابداً. .

اسقطتُ اللفافة من النافذة، فحملها الزبد الى الجدار، ثم طواها ومددت يدي من جديد الى علبة السجائر:

ـ الأفضل ان لا تشعل واحدة جديدة يا استاذ رياض، وصل الأكل. .

قالها ابو سليم وهو يبتسم، ثم دار حولي، ورمى من النافذة قطعاً صغيرة من الخبز كان قد حملها من مائدة اخرى، وقال شيئاً ما بصوت خفيض، ثم أخذ يرتب الأطباق.

ـ ماذا قلت يا ابا سليم؟

ـ عفواً، لم اكن اتحدث اليك، كنت اخاطب السمك. .

ـ السمك؟.

سألت متعجباً، واستدرت لاواجهه:

ـ هل قلت انك كنت تخاطب السمك؟

اجاب ببساطة:

ـ نعم..

ـ وماذا قلت للسمك الآن؟.

استمر في ترتيب الصحون، ثم دفع امامي رغيفاً وهو يقول:

ـ قلت «اعمل صالحاً.. وارمه في البحر..».

بدا لي انه اعتاد الاجابة على مثل هذه الاسئلة، لذلك كانت لهجته تحمل قناعة وبساطة دون ان تحمل نغم من يقول شيئاً جديداً..

ـ هل ترمي الخبز دائماً الى السمك؟

ـ الفتات الذي يتبقى على موائد الزبائن.. السمك احق به من سلة القمامة.. انني اطعم السمك منذ عشرين عاماً..

كان في صوته رنة فخار بعيدة، ولكنه لم ينظر اليّ، بل قدّم الفوطة، وهز رأسه الواهن، ومضى الى طاولة اخرى..

اكلت لقمة.. إلا ان الفكرة كانت ما تزال تدور في جبيني، نهضت، ونظرت عبر النافذة الى بحيرة ماء راكد صنعتها صخرتان متجاورتان بين الأمواج، وكانت تتأرجح على سطحها قطع مهترئة من الخبز، وكنت استطيع ان اتبين الاسماك الفضية تتحلق حولها..

عدت لاتابع تناول طعامي، إلا اني كنت غير قادر على انتزاع نفسي من التفكير بوجه أبي سليم المطمئن وهو يقوم بعمله منذ عشرين عاماً، وبدا لي كل ذلك امراً لا يبعث على الارتياح. «اعمل صالحاً وارمه بالبحر. . ». شيء عجيب الى حد الذهول. . عشرون عاماً وهو يعمل صالحاً ويرميه الى البحر!. تراه لو كفّ عن القاء الخبز الى السمك. . هل سيخسر شيئاً؟.

ـ (ابو سليم)!. .

ناديته فجأة، فاقترب حاملاً صحناً فارغاً، ووقف في مواجهتي:

ـ ولكن السمك، يا ابا سليم، ملايين. . انت لا تستطيع ان تطعمها كلها. .

نظر اليّ باستغراب، كأنه كان يتوقع مني ان انسى قصة السمك. . ومال قليلاً ليضع الصحن الفارغ في ركن الطاولة المجاورة، ثم اتكأ على ظهر المقعد المقابل:

ـ على قدر ما استطيع يا استاذ رياض، على قدر ما استطيع. . انا لست مسؤولاً عن اطعامها كلها. . انا لا استطيع ان اطعمها كلها. . ولكن هذا كله افضل من سلة القمامة. . أليس كذلك؟.

تناول الصحن، وقبل ان يمضي التفت تجاهي وهزّ رأسه وهو يبتسم. . وكان الامر كله، بالنسبة لي، شيئاً غير مريح.

اكملت طعامي مسرعاً وكنت غير قادر على وضع الاشياء في مكانها. . استدعيت ابا سليم فأقبل ببساطة، ومدّ يده بالفاتورة. . كان وجهه هادئاً فيه طمأنينة فخورة بدت لي كأنها معجونة في تقاطيعه،

وهكذا وجدت نفسي مسوقاً، رغم كل شيء، لأقول :

ـ يجب ان تكفّ عن القاء الخبز الى السمك يا ابا سليم . .

بقي الوجه العجوز هادئاً، ثم سأل:

ـ لماذا أكفّ عن اطعام السمك؟

احسست برنة سخرية حادة وعميقة في سؤاله، ورغم ذلك فقد تماسكت:

ـ انت لا تعرف ان الخبز يقتل السمك . .

اسقط يده برخاوة على جنبه، ثم سأل متململاً:

ـ يقتل السمك؟ الخبز يقتل السمك؟ كيف؟

شعرت بالارتياح . فمضيت بالكذبة شوطاً آخر:

ـ السمك يحب الخبز، لذلك يأتي مسرعاً كي يأكله، ولكن بعد ربع ساعة من وصول الخبز الى معدته الصغيرة يفتك به، فيموت . .

نظر الى البحر هنيهة، ثم اعتمد على ركن الطاولة القريبة، وكانت عيناه الصغيرتان ترجفان:

ـ ولكن لماذا؟

سأل بصوت متعب، فيما كانت اصابعه تتشنج وتنفرد فوق غطاء الطاولة :

ـ لماذا؟ لا اعرف لماذا! . ولكننا درسنا هذا في المدرسة منذ زمن بعيد، الخبز يقتل السمك .

نظر ابو سليم حوله، ثم ركز عينيه الصغيرتين مباشرة في عيني:

ـ ولكن السمك يأكل الخبز..

ـ نعم.. السمك يحب الخبز، ولكن الخبز يقتل السمك...

ـ يقتله؟

سأل دون ان يعرف كيف يتعين عليه ان يستمر، فهززت رأسي، بينما مضى يشد اصابعه فوق غطاء الطاولة، وينظر الى الماء، احسست الحزن في عينيه الصغيرتين، والاسى في الاصابع المعروقة الحائرة..

ـ لم يقل لي احد ذلك قبل الآن...

ـ هذا شيء لا يعرفه الا طلاب الجامعة..

ـ الخبز يقتل السمك؟

ـ نعم..

صفق زبون من بعيد متذمراً، ولكن ابا سليم تجاهله، قلت في نفسي: «ربما يحدث هذا لاول مرة منذ عشرين عاماً» احسست بغيظ، فيما استمر ابو سليم، محزوناً، ينظر الي، ثم الى الماء، ثم يتشاغل بالنظر الى الارض..

ـ كنت ارمي الخبز الى السمك طوال عشرين عاماً..

ـ عشرون عاماً؟

هزّ رأسه بحزن:

ـ نعم.. كل يوم، كل يوم، منذ عشرين عاما..

اخذ صحنا عن الطاولة المجاورة ومسحه بطرف سترته، ثم اشاح بوجهه وهو يهمس، كأنما لنفسه:

ـ كنت اعتقد ان السمك يحب الخبز.. ويحبني..

هزّ رأسه متألما، بينما صفق الزبون مرة اخرى بعنف:

ـ عشرون عاما، كل يوم.. كل يوم..

رفع وجهه، فتبينت دموعا لامعة تتسلل ببطء في شعر لحيته القصير الخشن..

ـ اذن هكذا.. هكذا..

ـ ماذا؟

ـ كنت اقتل السمك طوال عشرين عاما..

هززت رأسي وانا اطبق شفتيّ بعنف، ورميت على الطاولة ثمن الطعام، وخرجت الى الشارع من جديد..

بيروت ١٩٦١

قلعة العبيد

لو لم يكن رث الثياب بتلك الصورة المحزنة، لقلنا عنه انه شاعر. . فالمكان الذي اختاره ليبني فيه كوخه المتواضع من الخشب والصفيح مكان رائع. . وعلى بعد اقدام من العتبة يتمسح جبروت البحر تحت اقدام الصخور الحادة بصوت رتيب عميق. . كان وجهه نحيلا، ولحيته البيضاء تتخللها شعيرات سوداء تزيد في بؤسه، وكانت عيونه غائرة تحت حاجبين منفوشين، ووجنتاه بارزتين كأي صخرتين صدف ان وقعتا حول نتوء كبير، كان انفه.

لماذا ذهبنا الى ذلك المكان؟ لست اذكر الان. . لقد قطعنا في سيارتنا الصغيرة طريقا وعرا موحلا لا ملامح له، واستغرقت رحلتنا اكثر من ثلاث ساعات. . ثم اشار ثابت من نافذة السيارة بذراعه وصاح بصوت ثاقب:

ـ ها هي «جليعة العبيد». .

و«قليعة العبيد» هذه كانت صخرة كبيرة، اكل الموج من اساسها فاصبحت تشبه جناح طائر عملاق ذفن رأسه في الرمل، ومد جناحه فوق صخب البحر. .

ـ لماذا سموها قليعة العبيد؟

ـ لست ادري . . ربما كان في الامر حدث تاريخي الصق بها هذا الاسم . . هل ترون ذلك الكوخ؟

واشار ثابت مرة اخرى الى الكوخ الصغير الملقى في ظل الصخرة الجبارة، واطفأ محرك سيارته، وهبطنا . .

ـ يقولون ان عجوزاً نصف مجنون يسكنه . .

ـ وماذا يفعل في هذا الخلاء لوحده؟ . .

ـ ما يفعله اي نصف مجنون يخطر على بالك . .

وشاهدنا العجوز ـ من بعيد ـ يجلس القرفصاء على عتبة كوخه محتوياً رأسه بين كفيه، محدقاً الى البحر . .

ـ ألا تعتقد ان هذا العجوز له قصته الخاصة؟ . لماذا تصر على انه نصف مجنون؟

ـ لست أدري . . هكذا سمعت عنه . .

كان ثابت قد وصل الى المكان الذي اختاره، فمهد الرمل، والقى بزجاجات الماء، واخرج الطعام من الكيس، وجلس .

ـ يقولون انه كان اباً لأربعة اولاد حالفهم الحظ، وهم الان من اغنى اغنياء المنطقة . .

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد اختلف الابناء حول ايواء ابيهم . . وتحكمت زوجاتهم في الأمر، فانتهى القرار بالعجوز الى الهرب والاستقرار هنا . .

ـ انها قصة تجري كل يوم. . ولا داعي لان تخلق من العجوز نصف مجنون. .

نظر ثابت اليّ بلا معنى، ثم اشعل مجموعة من الاخشاب التي شكل منها موقداً، وصب الماء في الابريق وثبته فوق النار. .

ـ المهم في القصة هو ان نتفق: هل كان هروبه الى هنا من وحي نصفه المجنون ام من وحي نصفه العاقل؟.

ـ ها هو ذا على بعد امتار منك. . لماذا لا تقوم اليه فتسأله؟

نفخ ثابت في النار، ثم اخذ يفرك عينيه وقد استوى راكعاً على ركبتيه. .

ـ اني لا استطيع ان اتحمل الفكرة التي يوحيها اليّ منظره. .

ـ أية فكرة؟

ـ ان يمضي الرجل سبعين سنة من حياته بصورة قاسية، ان يعمل، ان يتعب، ان يكون موجوداً يوماً اثر يوم، وساعة وراء ساعة، ان يأكل طوال سبعين عاما من عرق كفيه، ان يعيش اليوم، آملاً في غد افضل، ان ينام كل ليلة طوال سبعين سنة. . لماذا؟ ليمضي بقية عمره اخيراً مطروداً ككلب، وحيداً، جالسا هكذا. . انظر اليه. . كأنه حيوان قطبي فقد فراءه. . هل تتصور ان يعيش الانسان سبعين سنة. . ليصل الى هنا؟. اني لا اتحمل!

وحدق الينا من جديد، ثم بسط كفيه وعاد يصيح:

ـ تصور! سبعون سنة بلا فائدة. بلا معنى. . تصور انك مشيت

سبعين سنة على طريق واحد. . نفس الاتجاه، نفس الأطراف. . نفس الافق. . نفس كل شيء. . انه شيء لا يحتمل!.

ـ ربما يخالفك العجوز في وجهة النظر. . ربما يعتقد انه وصل الى نهاية مختلفة عن حياته. . ربما كان يحب نهايته هذه. . لماذا لا تسأله؟.

وقمنا اليه. . وحينما وصلنا الى مكانه، رفع عينيه ورد سلامنا ببرود، ثم دعانا الى الجلوس. . ومن خلال الباب الموارب شاهدنا الكوخ من الداخل. . كان فراشه الرث في الزاوية. . وكانت هنالك صخرة مربعة في الزاوية المقابلة. . شاهدنا عليها كوما من المحار غير المفتوح. لقد خيم الصمت علينا هنيهة، قطعه العجوز بصوته الواهن:

ـ اتريدون شيئاً من المحار؟ انني ابيع محاراً. .

ولما لم يكن لدينا اي جواب، فلقد سأل ثابت:

ـ وهل تصطاده انت؟

ـ اني انتظر الجزر فالحق به الى مسافة بعيدة في الداخل، واجمعه، ثم ابيعه للذين يريدون ان يجدوا فيه لؤلؤا. .

وحدقنا في وجوه بعضنا، ثم ما لبث ثابت ان طرح السؤال الذي اعتمل في رؤوسنا جميعا. .

ـ لماذا لا تحاول انت ان تجد لؤلؤاً داخل هذا المحار؟

ـ انا؟

قالها وكأنه يعي لاول مرة انه موجود فعلاً. . . او كأن الفكرة لم تطرأ على باله اطلاقاً. . ثم هز رأسه، وصمت. .

ـ بكم تبيع الكوم؟

ـ بمبلغ زهيد. . . برغيف او برغيفين. .

ـ انه محار صغير، لا يوجد فيه لؤلؤ حتماً. . .

نظر الينا العجوز بعينيه المطفأتين تحت حواجبه المنفوشة، وقال بحدة:

ـ هل تفهم انت في المحار؟ من يدريك انه لا يوجد فيه لؤلؤ او يوجد؟.

وكأنما خشي ان يندفع اكثر ويضيّع الصفقة. . فصمت. .

ـ وهل تستطيع انت ان تعرف؟

ـ لا. . لا احد يعرف. .

واخذ يتلهى بصدفة وجدها امامه متجاهلاً وجودنا، وكأننا لسنا هناك. .

ـ اذن بِعْنا كوماً. .

استدار العجوز، واشار الى الكوم المرصوف فوق الصخرة المربعة وقال وفي صوته رنة فرح مكتومة:

ـ هات رغيفين وقم خذ هذا الكوم. .

وحينما عدنا الى مكاننا حاملين كوم المحار، عاد الشجار يأخذ مجراه قال ثابت:

ـ اني اعتقد انه ليس نصف مجنون، وليس له اولاد اغنياء. . كل ما

هنالك انه رجل فقير وجد اسلوبه في التسول الشريف . .

ـ بل اعتقد ان هذه العيون ليست سوى عيون مجنون . . وإلا لماذا لا يفتح المحار فربما وجد لؤلؤة ما؟ .

ـ ربما مل من المحاولات ففضل ان يبقى متفرجاً ورابحاً معاً . .

لقد شغلنا نصف نهارنا في فتح المحار حتى اتينا عليه . . وكومنا حولنا بطون المحارات الهلامية الفارغة . . ثم اخذنا نضحك على جنوننا . .

وعند العصر، اقترح عليّ ثابت ان احمل الى العجوز فنجاناً من الشاي الثقيل، علّ هذا يدخل الى صدره شيئاً من الفرح . .

وحملت الشاي اليه . . لقد راودني احساس صغير بالخوف، ولكنه دعاني الى الجلوس، واخذ يرتشف شايه بشغف . .

ـ هل وجدتم شيئاً في المحار؟ .

ـ كلا . . لم نجد أي شيء، لقد ضحكت علينا . .

هز رأسه بألم، ورشف رشفة اخرى . . وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ ضحكت عليكم برغيفين!

وعاد يهز رأسه من جديد . . ثم نظر اليّ فجأة وصاح بحدة:

ـ لو كانت هذه المحارات حياتك . اعني لو كانت كل محارة عبارة عن سنة من عمرك، وفتحتها واحدة إثر الأخرى فوجدتها فارغة، أكنت تحزن حزنك لفقد رغيفين؟

لقد اخذت ارتعش . . وتأكد لي في لحظة انني امام مجنون فعلا،

كانت عيونه ـ تحت حواجبه المنفوشة ـ تلتمع ببريق حاد وغير طبيعي، وكان ثوبه الرث ينتفض في ضوء العصر.. ولم اجد اية كلمة اقولها، فحاولت ان انهض، ولكنه أمسك زندي، وشعرت بكفه الدقيقة قوية متشنجة.. ثم سمعت صوته:

ـ لا تخف.. انا لست مجنوناً كما تعتقد.. اجلس، اريد ان اقول لك شيئاً.. ان اسعد لحظات يومي هي ان اتفرج على خيبة أمل من هذا الطراز..

وعدت الى الجلوس شاعراً بشيء من الطمأنينة هذه المرة..

بينما اخذ هو ينظر من جديد الى الافق متجاهلا وجودي وكأنه لم يدعني قبل هنيهة الى الجلوس.. ثم التفت اليّ:

ـ لقد كنت اعرف انكم لن تجدوا شيئاً.. ان هذا المحار ما زال طفلا، ولذلك لا يمكن ان يحتوي على أي جنين لؤلؤي.. ولكنني اردت ان أعرف..

وصمت من جديد.. وعاد يحدق الى البحر، ثم قال كأنه يحدث نفسه:

ـ سوف يبدأ الجزر مبكراً هذه الليلة.. وعليّ ان اجمع كوماً من المحار.. فغداً سوف يأتي رجال آخرون..

●

قمت أجرّ حيرتي.. كانت قلعة العبيد مظلمة في ضوء المغيب، وكان الاصدقاء يشربون الشاي حول اكوام المحار الفارغة، بينما اخذ

العجوز يعدو خلف الجزر، منحنياً بين الفينة والاخرى ليلتقط المحار المتخلف عن الماء..

الكويت ١٩٦٠

ستة نسور وطفل

كنت أعمل مدرّس موسيقى في القرى.. ويومذاك لم يكن من الضروري ان يكون مدرس الموسيقى يفهم بالموسيقى.. كل ما كان عليه ان يؤديه هو انشاد بعض الأناشيد أمام الصبية، ثم العمل على ضبط الإيقاع حينما ينطلقون بالانشاد مجموعة.

لم يكن عملي مرهقاً البتة.. لولا اني ـ بحكم المادة التي أدرسها ـ كان عليّ ان أتنقل بين ثلاث قرى لأؤدي دروسي فيها. ورغم اني كنت أشعر في الأشهر الاولى باني شيء نادر، إلا ان هذا الشعور اختفى كليّة حينما أصبح ركوب السيارة العتيقة، مع مجموعة من الفلاحين، وفوق ارض وعرة.. شيئاً لا يطاق.. وبالاضافة لذلك، كنت قد بدأت اشعر بأن عملي هذا ليس الا دفناً بطيئاً للطموح الذي كنت أحمله يوم تخرجت من المدرسة الثانوية.

كان ركوب السيارة امراً مرهقاً حقاً! كنت احاول ان أنام أحياناً خلال الطريق، ولكن اهتزاز السيارة العنيف كان يحول بيني وبين ان أفعل.. وفي المرات القليلة التي كنت أشعر فيها باني موشك على النوم، رغم كل شيء، كانت تردني الى الواقع سلة، أو بطيخة، أو أي شيء آخر يدفعه رجل يجلس جواري الى حضني.. أو كنت أصحو فزعاً بعد

لكزة عنيفة من جاري يرجوني فيها ان أدخل حكماً حول نزاع حدث بينه وبين زميله . .

كل هذا كنت احتمله على مضض . . لسبب قد لا يعرفه سوى مدرّس قام بعمله في القرى . . المدرّس هناك شيء مقدس . . وكان يعزّ علينا ان نحطم قدسيتنا الخاصة بتأفف عابر، أو بكلمة فظة . . لذلك كنا نهز رؤوسنا حينما نشرك عنوة في موضوع، او نبتسم بطيبة حينما يرجونا فلاح ما ان نمد له يد المساعدة . .

كل هذا . . كنت احتمله على مضض . . ولكن الامر الذي كان يقدر على انتزاعي من وقاري، هو ان يدفع بي فلاح ما، في سيارة عتيقة، تهتز متأرجحة فوق طريق جبلي وعر، وفي لحظات، من المفروض ان تكون لحظات راحتي بين درس وآخر، يدفع بي عنوة الى مشاركته الحديث والاهتمام طوال الطريق:

ـ هل لاحظت هذه الصخرة يا استاذ؟

قالها فلاح عجوز ذات يوم، مشيراً عبر النافذة الى صخرة مدببة تنتصب فوق تلة صغيرة . .

ـ نعم . . اني أراها ثلاث مرات في الاسبوع . .

بقيت إصبعه ممدودة تجاه الصخرة وهو يسأل من جديد:

ـ هل تعرف قصتها؟

ـ حتى هذه الصخرة لها قصة؟

سألت مستغرباً، مع علمي بأن لكل شيء في القرية قصة، ولكني لم

أكن أعلم ان لهذه الصخرة الصغيرة، في ذلك الطريق المهمل البعيد، قصة ايضاً. ورغم ذلك فلقد حمل سؤالي تأففاً واضحاً، وفرشت الجريدة أمام عيني، وأخذت أتلهى بالقراءة.

ـ بدأت منذ زمان بعيد. .

تجاهلته، ومضيت بالقراءة، كنت على يقين ان الفلاح العجوز لا ينظر اليّ، ولكنه يحدق الى الصخرة وهي تنجرّ رويداً رويداً في أفق النافذة.

ـ كنت أسافر كل يومين مرة. . وكنت أمرّ بها دائماً فأشاهد فوقها نسراً رمادياً يقف كشيء محنط. . كان يأتي في الصباح. . فيطير فوقها بجناحين كبيرين، ثم يحط بهدوء، ويبقى كذلك الى ان يأتي المساء فيحلق عائداً الى الجبل من جديد. .

طويت الجريدة ووضعتها في جيبي ونظرت الى وجه العجوز كأنه كان يتكلم عن احد اولاده:

ـ طوال ستة شهور لم ينقطع يوماً عن المجيء. .

ـ هل عرفت السبب؟

نظر اليّ فجأة كأنه يشاهدني لأول مرة. . وتريث هنيهة قبل ان يحول وجهه الى النافذة من جديد ويجيب على سؤالي:

ـ ان احداً لا يعرف لماذا يفعل الحيوان ما يفعل. . ولكن هذا النسر بالذات ولد على تلك الصخرة. . كانت أمه طاعنة في السن فلم تستطع ان تضع البيض على الجبل فتركته هنا. . وحينما فقس البيض عن

الفراخ، ماتت الأم، وبقيت ملقاة على تلك الصخرة..

عاد، فحول وجهه عن النافذة، ونظر اليّ:

- حينما كبر النسر وشعر بدنو أجله.. أصبح يأتي كل يوم فيقف حيث ماتت أمه.. وينتظر..

- وهل مات؟

- نعم.. مررت ذات يوم فلم أجده..

عدت، ففتحت الجريدة من جديد وأخذت اقرأ.. ولكن العجوز لم يكن قد أكمل قصته..

- النسر حيوان وفيّ..

هززت رأسي موافقاً، وكان العجوز ينظر الي مؤكداً جملته بعينيه.. وحينما طال تحديقه اليّ لم أجد سبيلاً آخر غير ان أكرر:

- نعم.. النسر حيوان وفيّ..

في طريق عودتي.. جلس الى جانبي فلاح شاب يحمل كيساً كبيراً من الذرة.. في اول الامر تبادلنا حديثاً موجزاً، وحينما مررنا أمام الصخرة لكزني في كتفي.. وأشار عبر النافذة اليها.. كان على وشك ان يبدأ لولا ان قاطعته:

- رحم الله النسر!! انت تعرف قصته بلا شك... لقد كان وفياً..

أسقط كفه فوق فخذه، وهزّ رأسه بأسى:

- الحب.. الحب يفعل ذلك كله..

ـ أي حب؟؟

ـ كانت تحبه بلا شك. .

ـ من؟ . .

نظر اليّ باستغراب، ثم هتف:

ـ انثى النسر التي ماتت!. . يبدو انك لا تعرف القصة. .

اعتدل في جلسته حتى واجهني تماماً ملقياً بثقل كيس الذرة على ركبتيّ:

ـ كانت تأتي كل صباح. . فتحوم فوق الصخرة. . ثم تهبط، وتقف الى ان يأتي الغروب لتعود مع الشفق الى الجبل. .

تنهدت. . وسألت بفروغ صبر:

ـ ولكن لماذا؟.

ـ القصة طويلة. . يقال ان نسرين فحلين تشاجرا مرة فوق هذه الصخرة من أجلها. . كان زعيقهما يسمع عن بعد. . ولقد تناقرا حتى دميا. . واخيراً قتل احدهما الآخر. إلا ان انثى النسر لم تكن تحب الفائز. . وهكذا، دخل المسكين في شجار آخر معها غُلب فيه شر غلبة. . وسقط قتيلا هو الآخر الى جانب غريمه. .

ـ ثم ماذا؟

اشار بابهامه الى الخلف حيث مرت الصخرة وهز رأسه بألم:

ـ ثم اخذت تبكيها فوق الصخرة الى ان ماتت. .

ـ هل تعرف كيف ماتت؟

ـ أغلب الظن انها كفت عن الأكل. .

عاد، فاعتدل في جلسته واخذ ينظر عبر النافذة الى التلال الجرداء قائلا كمن يهمس:

ـ انثى النسر حيوان متوحش. .

بعد اسبوع، كدت انسى القصتين. . لولا ان ذكرتني امرأة كهلة، جلست الى جانبي في ثيابها الفضفاضة:

ـ لو كان زوجها مكانها. . هل كان فعل مثلها؟

اشارت الى الصخرة، ونظرت اليّ كمن يريد ان يدفعني الى ان اؤ كد ظنه. . قلت:

ـ من يدري؟ قد يفعل مثلها. . ألم يمت من أجلها؟

ـ من أجلها؟

جأرت سائلة. . ثم هزت رأسها:

ـ كانا يأتيان هنا دائماً. . وكنت أراهما كل اسبوع حينما اسافر. . يتناقران بهدوء، ويهرّان كقطين صغيرين. . كنت ما زلت مخطوبة الى ابي الحسن، ولذلك كنت انظر اليهما بامعان كلما مررت من هنا. . ثم وجدتها، بعد حين، تقف وحدها. . اغلب الظن انه طار وراء واحدة اخرى. .

ضحكتُ، وسألت مداعباً:

ـ ما الذي أدراك انه طار وراء واحدة اخرى؟

ـ كلكم كذلك.. والنسور ايضاً.. ربما وجد واحدة صغيرة فتركها..

نظرت اليّ بانفعال، وضربت كفها على فخذي:

ـ أرأيت؟ لقد بقيت بعد هربه تأتي كل يوم.. تقف.. تنتظر.. تزعق، حتى ماتت..

ـ كيف ماتت؟

ـ غماً، بلا شك!.

حينما عدت تلك المرة كنت وحدي في السيارة.. إلا ان السائق لم يتركني بهدوء.. لقد اشار الى الصخرة، واخذ يزعق خلال هدير المحرك..

ـ يروون قصصاً كثيرة عن نسر كان يقف على هذه الصخرة.. ولكنها كلها خيال بخيال.. كان النسر يقف هنا.. لأن عشه كان هنا.. ثم غير مكانه..

انحنيت، حتى يسمع جيداً، وصرخت سائلا:

ـ لماذا؟.

ـ ايام كان يقف هنا كنت اعمل على هذا الخط مع زميل واحد فقط، كنا لا نزعج الطريق بمرورنا.. ولكن مزيداً من السيارات وصلت للخط.. ومعظمها يعمل على المازوت، دخان المازوت شيء مزعج،

والضجة مزعجة اكثر، لم تعد الصخرة مناسبة، فهرب بعشه الى الجبل..

مرت فترة، اسبوع على الأغلب، لم اسافر فيه بسبب مرض مفاجىء، وحينما اصبح باستطاعتي ان اعود الى عملي شاركني السيارة زميل جديد احسن ما فيه انه لا يتكلم.. كان جديداً على العمل في القرى، فأمضى الطريق صامتاً، واسعدني منه ان يفعل.. ولكن حينما مررنا بالصخرة لكزته.. كنت قد مللت من الصمت فلم اجد مانعاً من التحدث:

- انظر.. هذه الصخرة سوف تسمع قصصاً كثيرة عنها بالمستقبل.. قصصاً تتعلق بنسر..

- نسر؟

- نعم..

صمت، وخيل اليّ انه على وشك ان يعاود النوم.. فعدت الى الحديث:

- اني اعتقد ان النسر كان صغيراً.. فكان يأتي الى هنا كل يوم، فيقف حتى المساء.. ذلك لأن جناحيه الصغيرين لم يكن باستطاعتهما ان يحملاه الى صخرة أعلى.. وحين كبر قليلا، وجد مكاناً أعلى..

هز زميلي رأسه، وبدا لي انه لا يرغب بالحديث فعاد الى النوم..

في طريق العودة.. شاركني زميل قديم السفر.. وخلال كل ذلك

الوقت أصبحت الصخرة علامة من علامات الطريق وعلامات الحديث. . مررنا بها فملت على الزميل:

ـ أتعرف شيئاً عن هذه الصخرة؟

ـ اني عاصرتها. .

ـ كيف؟

ـ منذ طردت من عملي القديم بسبب نشاطي السياسي اشتغلت هنا. . لذلك فأنا أعرف كل قصص النسر. .

ـ وأيها في رأيك أصح؟

تمدد جيداً في مقعده. . ونظر باسترخاء ناحية النافذة:

ـ النسر، كان يأتي الى هنا لأنه يريد ان يأتي الى هنا. . ليس في الأمر أي لغز. . لماذا تحط فراشة على زهرة دون اخرى؟ نفس القصة. . كان يأتي فيقف. . ثم يعود بهدوء الى عشه. .

ـ ولكنهم يقولون انه مات. .

ـ نعم، قتل. .

مدّ اصبعه فأشار الى كوخ ابيض يبعد عن الصخرة بضع عشرات من الامتار:

ـ قبل ان تبني الشرطة هذا المخفر، كان النسر يأتي كل يوم وعندما بنوه واظب على الاتيان إلا ان أحد افراد الدورية قتله ذات يوم بمسدسه لأنه، كما قال، أزعجه بصوته وزعيقه.

ـ وهل أصابته الرصاصة؟

هز رأسه ببطء، وعاد ينظر الى المخفر، ثم همس:

ـ أصابته، ولكنها لم تقتله. . حاول ان يطير الا انه لم يستطع ان يواصل طيرانه الى فوق، فسقط في الوادي.

حل الشتاء، فغيرت السيارات الطريق متخذة طريقاً آخر لا تطاله الثلوج. . وطوال شهور الشتاء لم اسمع ابداً حديث الصخرة والنسر. . حتى اذا ما حل الربيع عادت السيارات الى سلوك الطريق القديم. .

لست ادري. . هل كان السبب في نسياني الصخرة عدم الحديث عنها، أم كون الطريق في الربيع تتخذ مظهراً خلاباً يجتذب الاهتمام كله. . مهما يكن. . فان اياماً كثيرة مرت قبل ان اطل من نافذة السيارة، فاشاهد الصخرة مصادفة. . واشاهد فوقها نسراً كبيراً يضم جناحيه الرماديين ويقف كشيء محنط يحدق باتجاه الطريق. .

ـ لقد عاد النسر. .

قلت ذلك باللهجة الجديرة بالخبر الكبير دافعاً كتف زميلي، رغم انه كان طفلا، مشيراً برأسي الى الصخرة. .

ـ أي نسر؟

سأل الطفل ببراءة، ناظراً الى حيث اشرت. . فمددت اصبعي الى خارج النافذة لافتاً نظره من جديد. .

ـ هذا الذي يقف فوق تلك الصخرة. . ألا تعرف قصته؟

ـ تلك الصخرة؟

ـ نعم . .

حدق الي مبتسماً باستغباء ، فهززت رأسي دون ان أكف عن الاشارة الى الصخرة، بينما كان الطفل يتملى وجهي بامعان قبل ان يقول ببطء :

ـ هذه ليست نسراً . . انظر جيداً . . شجيرة توت بري تنبت كل ربيع خلف الصخرة وتذبل في الصيف، او تلتهمها الارانب قبل ان تذبل . .

حدقت جيداً . . وخيل اليّ ان الطفل صادق . . ورغم ذلك لم أشأ ان اتراجع . . فسألت متردداً :

ـ هل انت متأكد؟

ابتسم من جديد، مستمتعاً انه شاهد معلماً جاهلاً ، وأكد باسطاً كفيه الصغيرتين :

ـ حينما ينضج التوت آتي مع رفاقي لنسرقه . . طعمه لذيد جداً . .

بيروت ١٩٦٠

القِطّ

. . كان جالساً في القهوة فخطر له فجأة ان يذهب الى سميرة . . لقد اعتذر الى رفاق الورق، ودفع مقعده وقام الى الطريق: كان الطقس حاراً، والشمس تلهب رأسه، لكن شيئاً لم يكن ليستطيع ايقاف عزمه، وحينما شاهد اول سيارة اجرة اشار اليها واندفع الى المقعد الخلفي هاتفاً بالسائق:

ـ الشارع الفلاني .

وحينما استقر في المقعد هجمت فكرة خبيثة على رأسه:

ـ ايها الكذاب . . انت تذهب الى سميرة لانه ليس ثمة مكان اخر تذهب اليه . . الفراغ هو الذي يجرك اليها . .

ابتسم بكبرياء، وطرد الفكرة بصلف: انا ذاهب اليها لاني اريد ان اذهب اليها . .

احس، فيما كانت السيارة تندفع في الطريق، بغصة صغيرة في حلقه كان يشعر بها كلما اعتزم امراً كبيراً، وحينما نظر الى ظاهر كفه كانت عروقه بارزة بصورة غير عادية، فاخذ يصفر لحناً قائلا لنفسه:

ـ ليست هذه اول مرة اذهب فيها الى سميرة . . والى ذلك فانا اشعر بحاجة لها!

واخذ يحدق خلال النافذة الى الناس: نمل يسير في منعرجات طرقه الغريبة الخاصة من حيث لا يدري احد، والى حيث لا يعرف احد.. وفكر في انه انسان يعيش حياة كاملة: يفعل ما يريد، ويذهب الى حيث يريد، وان حياته كلها مرت دون هزات.. بل ان اية هزة لم تكن لتقدر ان تزحزح ثقته بهذا التفوق.. ما هو الذي يستحق ان يشوه له هدوءه واطمئنانه؟؟ انه يذكر - بوضوح شديد - كيف ذهب لسميرة في نفس اليوم الذي مات فيه والده. لقد قال مرة لاحد اصدقائه ان سميرة هي كل شيء في هذه الدنيا.. هي الشيء الوحيد المحدد الذي يعرف المرء اين يبدأ والى اين ينتهي.. متى يستطيع ان يفهم هؤلاء النمل بان سميرة هي الحقيقة؟.. وان كل شيء ليس الا غلافا يغلّف غلافا اخر، وانه ليس ثمة حقيقة على الاطلاق.. سواها؟ واكتشف فجأة انه يتفوق على كل هؤلاء البشر النمل بأنه....

- بانني ماذا؟

هز رأسه، واقتنع بانه يتفوق على كل هؤلاء لسبب ما، لا بد ان يكون موجودا في مكان ما، ولكنه ليس الآن في حاجة للتفتيش عنه، واكتفى من الاقتناع بالشعور الحقيقي الذي كان يتفجر داخل جسده، فيغسل عروقه، ويحس به في حلقه..

- اين تريد ان اقف يا سيدي؟

- اي مكان تستطيعه هنا..

حدق الى وجه السائق الاشيب وهو ينقده.. وخطر لباله ان هذا السائق يعرف وجهته، ولكنه لم يشعر بالخجل، بل ابتسم في وجهه

وقال لذات نفسه:

ـ لا بد من وجود هذا السائق كي يقودني الى هنا، ولا بد من وجود سميرة كي اسعد نفسي..

واعطته هذه الفكرة يقينا بان شعوره بالتفوّق لم يكن شعوراً فارغاً.. فالسائق يعرف، كما بدا له، انه يوصله الى حيث يريد ان يسعد نفسه، وسميرة تعرف ان عليها ان تسعده.. وهكذا بدأ يسير في الأزقة الضيقة التي تنتهي الى بيت سميرة، شاعراً بأنه محور صغير تدور عليه الحياة كلها..

الى هنا، كل شيء كان يجري على ما يرام، وكان يستشعر الاقتناع العميق يتفجر داخل جسده.. ولكن الغصة التي كانت تتكلب في حلقه كانت تكبر شيئاً بعد شيء.

ـ حسناً.. هذا يدل على اني ما زلت أرغبها بكليتي... وهذا أفضل.

ذلك انه كان في الايام الماضية يفقد رغبته بسميرة حينما يقرع بابها.. ويحس تلك الغصة الصغيرة تذوب في حلقه، ثم تسقط الى معدته.. ثم يتم كل شيء دونما أية رغبة.. وكان هذا يورثه نقمة لا حدّ لها.. اما الآن فكل شيء على ما يرام.

ـ لو سكنت سميرة في بيت يقع على رصيف شارع كبير، لوفرت عليّ المشي في هذا الزقاق الكئيب.. لماذا لا تسكن في مكان تقف فيه سيارة؟

كانت وجوه الناس ما زالت تمر في الزقاق أمامه، وكلما تعمق الى الداخل قلّت هذه الوجوه.

وبدا له انه من المضحك ان كل هؤلاء الناس يسكنون الى جانب سميرة، ولا يعرفون انه ذاهب اليها.. بل ربما لا يعرفون سميرة نفسها.. لقد كتم ابتسامة سخرية مرة.. وراودته رغبة في ان يوقف كل رجل يمر به، ويهزه من كتفيه، ويصيح به:

- انت مسكين!

ثم يكمل طريقه اليها.. ولكن لماذا لا تسكن سميرة في مكان يتسع لدخول سيارة؟

- ربما تخاف من الشرطة.. ربما كانت النقود هي السبب، هذا لا يهم! المهم ان الغرفة واسعة. ومريحة وان سميرة..

الغصة ما زالت تكبر وتكبر، وكان هذا يورثه سعادة لا تثمن.. وفجأة، شاهد القط..

كان مقعياً على مؤخرته في ركن مبلول من الزقاق، باسطاً ذيله بصورة مستقيمة، رافعاً عنقه الى فوق، مستعرضاً المارة بعيون مدورة، جامداً على غير عادة القطط.

لقد لمحه قبل ان يحاذيه ببضع خطوات، وخطر لباله سؤال ساذج:

- لماذا لا يتحرك هذا القط اطلاقاً؟

كان من الممكن ان يبقى السؤال بلا أي جواب. ولكنه حينما حاذى القط اشتد ضغط السؤال... فدار حوله مستطلعاً السبب. واجتاحته رجفة صغيرة، ولكنها سريعة وقاسية، حينما شاهد الساقين الخلفيتين للقط مهروستين، وتكادان تستويان مع الارض.. كان الدم جامداً ومخلوطاً بشعر القط، وكانت الساقان ملقاتين وكأنهما ليستا لهذا القط،

أكمل دورته وحدق الى عيونه: ثمة استسلام غريب وانتظار.

وعاد يسير داخل الزقاق باتجاه بيت سميرة.. وبدا له انه نسي كل شيء وهو يقرع الباب، ثم وهو يقبّل سميرة كالعادة، ثم وهو يجلس قبالتها في الغرفة.

هذه هي الحقيقة! حينما يحدق اليها الآن يشعر بشيء من الغرابة.. كأنها شيء يشبه جبلاً مسحوراً يشد الانسان عن بعد ولكنه ـ عن كثب ـ ليس سوى اكوام صخور لا معنى لها ولا مبرر. لا بد ان يكون ثمة تفسير لهذ الشيء، لماذا هذا الانجذاب المسعور للجبل الساحر، اذا كان هذا الجبل.. اذا كان ماذا؟ انه ما زال يحس برغبة في ان يعانق هذا الجبل، علّه يستطيع ان يمتزج فيه بكيفية ما.. كانت الرغبة تأكله في صدره، والغصة ما زالت تجرح حلقه كسكين ذات نصلين حادين.

ـ وجهك شديد الاصفرار.. هل انت مريض؟

ـ انا؟.

وهوى السؤال فجأة على جمجمته! لا بد ان سيارة مسرعة هي التي هرست ساقيّ القط المسكين.. ولكن كيف يتسنى لسيارة ما ان تدخل الى الزقاق الضيق؟

ـ انت مريض.. لقد ازداد اصفرار وجهك.. اتريد شايا؟

ـ شاي؟ كلا! ولكن قولي لي: هل يستطيع قط تكسرت ساقاه الخلفيتان ان يزحف من اول الزقاق الى حيث صنبور المياه في وسطه؟

ـ قط يزحف؟ ماذا دهاك؟ انت تشكو من الحمى!

نهضت سميرة لتأتي بالشاي . . وشعر هو بانه محموم فعلا . . لقد جس جبهته بظاهر كفه، كانت مبللة بالعرق.

ـ هذا من فعل الشمس . . انا لست مصابا بالحمى!

ارخى جسده فوق المقعد الوثير . . وحاول ان ينسى نفسه قليلا:

ـ ان لغرفة العاهرة رائحة خاصة . . لا بد انها تنبعث من مكان ما . . السرير؟ الستائر؟ ام من انفي نفسه؟ ولكنها رائحة خاصة ومتميزة . . استطيع شمها ككلب صيد مدرب . . كلب؟ ما الذي اوصل القط الى منتصف الزقاق؟؟

اعتدل في جلسته، وعادت سميرة تحمل الشاي بمنامتها الوردية، حدق الى جسدها وشعر بانه لا يرغبها كثيراً، ثم سمعها:

ـ فكرت في سؤالك . . هل كان القط على وشك الموت؟

ـ نعم . . اعتقد . . كان ينتظر . .

ـ اذن . . لقد زحف الى هناك كي يموت هناك!

ـ ولماذا يريد ان يموت هناك؟

ـ اسأله . . انا لست قطا.

وضحكت بالمجون اللائق بها، ثم جلست الى جانبه ووضعت ذراعها البض على كتفيه . . فيما اخذ يسائل نفسه: «ولكن اية قوة هذه التي جعلته يزحف من الشارع الى منتصف الزقاق. اية قوة؟»

وقام فجأة من مكانه نافضا رأسه بعنف كي تسقط الفكرة التي

استولت عليه. . واخذ يتجول في الغرفة باحثاً عن موضوع آخر، اقل سواداً:

ـ لماذا تسكنين هنا؟ لماذا لا تجدين لنفسك بيتاً على الشارع يوفر على زبائنك مشقة المسير داخل هذا الزقاق الكئيب؟

ضحكت سميرة. . وقامت فاستلقت على سريرها باعياء متكلف، وقالت ناظرة اليه من طرفي عينيها:

ـ كي لا يصل الى هنا الا الزبون الذي يرغبني فعلاً. . ان الزبون الذي لا يميل اليّ يصعب عليه المسير هذه المسافة الطويلة في الزقاق. . ولذلك فهو يفضل ان لا يأتي. . اما الذين يحبونني، مثلك، فيمشون.

وضع كفيه في جيبيه، وعاد يتجول في الغرفة. . كانت رأسه فارغة تماماً إلا من دوامة غثيان بلا ألوان. . اما الذين يحبونني، مثلك، فيمشون! . نظر الى الحائط كي يسحق الجملة التي اخذت تعوي كذئب ضائع في رأسه: كانت ثمة صورة تمثل شلالاً من المياه المزبدة. . وتحتها مباشرة تمثال من الرخام الرخيص لامرأة عارية بلا رأس. . والطاولة. . والمقعد خلفها. . والمرآة. . ثم السرير. . وهي مستلقية هناك تدخن.

وسمع صوتها، محاولة ان تسكب فيه كل انوثتها كي تحرك جوده:

ـ اما الذين يحبونني. . مثلك. . فيمشون. .

ـ اذن هكذا؟.

ـ ماذا؟.

ـ لقد زحف. . القط. . زحف يجرر خلفه قائمتيه الميتتين الى

هناك.. كي يموت هناك؟

اعتدلت سميرة في جلستها، وصاحت بصوت مجروح:

ـ ماذا حدث لك اليوم؟ انت مجنون.. لم تكن هكذا ابداً منذ عرفتك.. اتحسب اني مدرّسة تأتي اليّ لتسأل.. وتسأل..

ظل صوتها يدوّي.. فيما وضع نقوده على الطاولة، وخرج الى الزقاق الكئيب.

دمشق ١٩٦٠

الخراف المصلوبة

كل الابعاد التي امتدت امام بصري بلا نهاية كانت تحترق في شمس الصيف الملتهبة.. والغبار كان يصفع نافذة السيارة باتصال.. حينما كنت أنقل نظري في وجوه رفاق السفر كنت احس بوضوح كم هي قاسية رحلتنا، شعورهم بيضاء من الغبار، حتى رموش عيونهم كانت مغسولة بلبن مر.. وكانوا يلهثون والعرق يحفر في غبار وجوههم ممرات متشعبة لسيول صغيرة تنصب في أعناقهم..

وعادت تطن في رأسي تلك الجمل الحقيرة التي ما برحت تسليني منذ بدأنا الرحلة:

ـ هذه رحلة عجيبة! اليوم ليست سوى مأساة.. وغداً سوف نقول عنها انها مغامرة.

الخط الطويل من السيارات يجري فوق الطريق الرملي متعرجاً يشق صمت الصحراء كأنه شريـان جنون تبتلعه الاعماق.. وكانت نوبة من الفلسفة تجري على شفاه الزملاء المرهقين.

ـ ليس هناك أي صواب في العالم. اذن؟

ـ نعم.. لقد حكم علينا بأن نسقط داخل عقولنا فلا نجد ما نتمسك به.. ان الصواب موجود دائماً عند الآخرين. اما انت فلست

سوى الشك ذاته . .

ـ هذا صحيح . .

ـ يبدو لي احياناً ان الانسان الذي يؤمن بمثل عليا بصورة عميقة يكون أقرب الى مغادرة ايمانه من أي انسان آخر . اذ انه يكون قد تعلم كيف يشك باخلاص .

بدت لي هذه الكلمات بلا معنى على الاطلاق . . حينما يرى الانسان ان الاشياء موجودة يصبح أمر تبريرها شيئاً لا قيمة له . وقد رأيناها . . هذا كل الذي يهمني . .

ـ أهو البدوي الذي جعل رأسك تتدفق بكل تلك الفلسفة؟

ـ «آه . . البدوي ! كدت أنساه . . ربما كان البدوي هو الذي فعل ذلك . . ربما كان هذا الحر الملعون . . لست أدري . »

انا اعرف انه البدوي فقط ! فحينما يأخذ المثقف درساً صغيراً من بدوي ضائع في الربع الخالي يشعر بشيء من الخجل . . وزميلي الطبيب يحاول ان ينسب صداعه للشمس . . لا ، انه البدوي . . ومهما حاولت السيارة ان تبتعد عن المكان الذي تركناه فيه ، فلا بد وان نبقى مربوطين بقسوة الى تينك العينين الحادتين اللتين بقيتا تتابعان سيارتنا حتى واراها القيظ ، والغبار . . كنت أرغب في الكف عن سماع حوار الزميلين . . ولكن لم يكن لي من تسلية اخرى بين هذه الجدران التي تهتز باتصال :

ـ ان هذه الفلسفة لم تبرح رأسك منذ غادرنا الكويت . .أتذكر حينما قلت لي ان اختيارك لمرافقة بعثة الحج كان أكبر مهزلة مرت في حياتك؟

ـ إيه! ولكنني أتيت! لقد عشت كل عمري غير مؤمن على الاطلاق، وكان اختياري لأكون واحداً من أطباء البعثة بمثابة اجباري على ان أحج.. هل تتصور ذلك؟

ـ أتصوره جيداً.. انت تمضي هذه الايام عادة في القاهرة أو لبنان او ربما في سويسرا.. اما ان تقضيها داخل هذه الجهنم الممدودة الى الابد فأمر مزعج بالنسبة لك.. اما انا..

ـ انت من هواة الرحلات! انت تطمع في ان تقف السيارة بنا ونجد أنفسنا مجبرين على متابعة الطريق زحفاً فوق هذا الزجاج المصهور.. ولكن قل لي: ألست تطمع في كل ذلك من أجل ان ترويه يوماً ما، وانت منفوخ كديك مجنون، لبعض الفتيات؟

آراء هذا الطبيب تزعجني كثيراً.. ولكنه رغم ذلك يعرف كيف يصطاد الاخرين.. لقد انفجر زميله بالضحك، واقتنع من الهزيمة بالاطراء..

يقص مغامراته على بعض الفتيات! امر عجيب! ترى ماذا سيقول لهن هذه المرة؟.. اغلب الظن انه سوف يبدأ الحديث على هذه الصورة:

«اي والله! لقد رأيناه هناك.. كان في وسط الصحراء والشمس تحرق الرمل بقسوة ولكنه كان واقفا بهدوء ودعة.. من اين اتى؟ لسنا ندري! كيف وصل الى هنا؟ لسنا ندري.. عن اي شيء كان يبحث؟.. اغلب الظن انه كان يبحث عن ماء لخرافه الهزيلة.. كان يرعى تسعة خراف عجاف في شوك الصحراء.. وكان واقفا هناك..»

فاذا بدأ بهذه الطريقة فسوف يلفت نظر السيدات الجالسات، وسوف يقدم له احد المدعوين لفافة كي ينسجم اكثر في الحديث، ولربما اسقطت احدى الجالسات نقطة او نقطتين من كأسها فوق ردائها في غمرة انجذابها الكلي الى الحديث الطريف. اما هو فمن المحتم انه سيكون لحظتذاك في ذروة سعادته.. وسوف تتساقط فوقه الاسئلة من كل صوب:

- ماذا كان يفعل هناك؟ هل بدا قوي البنية؟ كان اسمر اليس كذلك؟ هل تحدثتم معه؟ ألم يكن مسلحا؟ تقول نصف مجنون؟ كيف يعترض بدوي واحد قافلة سيارات كبيرة؟ العجيب انه استطاع ايقافها! هل كانت عربيته فصحى؟..

اما هو، فلسوف ينتفخ اكثر فاكثر وهو يهدىء من اندفاعهم:

- «لماذا تستغربون الى هذا الحد؟ في تلك الصحراء الخارجة عن العالم يستطيع الطبيب المسافر ان يرى اي شيء.. يبدو لكم الامر غريبا الان.. اما بالنسبة لنا فلقد كان عاديا.. لا شيء كان يستطيع ايامذاك ان يحمل الدهشة الى عيوننا.. لذلك، فنحن حينما رأيناه واقفا هناك وحيداً الا من تسعة خراف عجاف.. لم يخطر لبال احدنا قط ان يتعجب او يدهش كما تفعلون الان..»

سوف يقول ذلك وهو يروي القصة فقط!. اما حينما شاهدها معنا.. حينما حدقنا معاً خلال زجاج السيارة المغبّر كانت الدهشة تاكلنا جميعاً في آن واحد.. كان يبدو صغيراً عن بعد وحوله تسع نقاط سوداء في صفرة الرمل المتلهب.. وسمعت صوتا من خلفي:

ـ يبدو كأنه رجل مصلوب في وسط هذه الصحراء العجيبة. .

كان فعلا يمد ذراعيه بصورة تكاد تكون افقية، ولكنه كان، رغم ذلك، واقفاً على الارض. . ومع اقتراب السيارة منه بدأت دهشتنا تتلاشى شيئاً فشيئاً ليحل محلها شيء يشبه الفضول. . ذلك اننا ـ من فوق تلة صغيرة ـ رأيناه بوضوح. .

بدوياً اسمر يحدق ببرود. . كأنه تعود ان يشاهد مثل هذه المناظر دائماً. . ناشراً ذراعيه فوق بندقية عتيقة ممدودة على كتفيه ومؤخرة عنقه. . لابسا كوفية ملقاة باهمال فوق رأسه وثوبا عتيقا لا يرد الشمس ولا الغبار. . وكانت خرافه التسعة مستلقية حواليه تلهث بصفير مسموع وكان واضحاً ان القيظ قد نهكها. .

حينما تباطأت حركة السيارات ثم وقفت الى جانبه، بدت لي انها نوبة غريبة من الحمى هي التي توحي لي ان يكون وجود هذا الانسان معقولاً. . بعيداً عن كل شيء. . مجرد خراف عجاف تسلي وحدته وبندقية عتيقة منشورة على كتفيه. . واعتقدت ـ لهنيهة ـ ان علي ان اتلمسه باصابعي كي اقتنع بانه موجود ومعقول. . .

وهتف صوت من ورائي صائحاً بجذل ولكن بخوف ايضاً:

ـ هي ذي اسطورة من اسبارطة. . الرجل والاله في مكان واحد. . ترى ماذا يفعل هنا؟؟

واجابه الطبيب الآخر ببرود:

ـ يتعبد. .

كان السائق قد نزل. وسمعنا، عبر نافذة السيارة، حوارهما:

- تقصدون الحج.. أليس كذلك؟

- نعم.. اتريد زاداً؟.

هبطنا من السيارة واتجهنا نحوه.. كانت عيناه تحتويان على شيء لا يفسر، وبدا انه لا يريد شيئاً سوى ان نمضي ونتركه..

- لست اريد زاداً.. انا لا آكل كثيراً..

- ماذا تفعل هنا؟

سأل صوت من خلفي.. ولمعت في عينيّ البدوي دهشة مفاجئة كأن يكون السؤال لا معنى له ثم تمتم:

- ارعى هذه..

- هذه؟ ماذا تجد هنا كي ترعاه؟.

- الشوك انه ما زال طرياً بعض الشيء..

- ولكن يبدو ان خرافك متعبة..

نظر اليها كأنه يشاهدها لاول مرة.. ولمعت في عينيه الحادتين ومضة الم صلبة.. وهز رأسه:

- انها عطشى..

- اذن اسقها..

- لست املك ماء.. ولم اجد طوال هذا النهار اية قطرة..

كان الحزن قد أخذ يتسع في عينيه حتى ملك كل شيء، وبدا لي انه موشك على البكاء.. ولكن الحلق الذي كان خلفي كان ما زال راغباً في متابعة الاسئلة:

ـ وانت.. ألست عطشاناً؟

ـ انا؟

وهز رأسه من جديد وذراعاه ما زالتا منشورتين فوق البندقية وتابع:

ـ انا لا يهمني.. ولكن هذه المسكينة عطشى..

ـ كيف تأكل هنا؟..

انني اجترع حليباً من ضرع هذه كل صباح.. ولكنها عطشى..

ـ متى سوف تعود الى اهلك؟

قلب شفته، وعاد يهز رأسه بصمت.. وحدق من جديد الى خرافه المستلقية ثم همس:

ـ انا لا يهمني.. ولكن هذه المسكينة عطشى!

ثم جأر نحونا بعيون متوسلة وهتف بصوت ضارع:

ـ اليس عندكم ماء لهاته المسكينات؟؟

وتصدى السائق:

ـ لا والله.. نحن لا نملك ماء كثيراً.. ولكن اذا اردت سقيناك انت.

تجاهل البدوي العرض، وأشار برأسه الى السيارة التي تحمل براميل الماء على ظهرها وسأل:

ـ أليس هذه ماء؟

ـ نعم ماء.. ولكنه للسيارات..

ـ ماء للسيارات؟

سأل بعجب.. وعاد السائق يقول:

ـ السيارات تحتاج دائماً الى الماء.

ـ ولكنها عطشى.. بل ربما ماتت..

حدق الى البراميل بوجل.. ثم هز رأسه كأنه غير قادر ابداً على فهم الموقف وكرر من جديد:

ـ الخراف عطشى.. بل ربما ماتت..

ـ اذا اردت سقيناك انت..

ـ انني اريد ماء لخرافي.. الستم ترون انها عطشى؟.

ـ اتريد طعاماً؟.

هز رأسه من جديد.. ونقّل عينيه فوق وجوهنا جميعاً ثم تضرع بصوت فاجع:

ـ الستم ترون انها موشكة على الموت؟ انها عطشى..

ـ ولكننا لا نقدر على اعطائك ماء..

ـ لماذا؟

ـ السيارات. .

ـ السيارات؟؟ هل تساوي هذه السيارات كلها خروفا واحداً من خرافي؟؟

بدت لوهلة انها نكتة جيدة. . ثم ما لبثت نظرة الحزن في عيونه الحادة ان ردتنا الى مرارة الموقف. .

ـ هل اهلك يبعدون كثيراً عن هنا؟

اشار بكفه، من فوق بندقيته الى ما وراء ظهره وقال بملل:

ـ بعيداً. .

ـ والآن ماذا سوف تصنع؟

هز كتفيه من جديد. . وحدق الى خرافه، ثم الى وجوهنا، وبهدوء، استدار واخذ ينظر الى الصحراء معطينا ظهره. .

وحينما عادت المحركات تهدر من جديد، سمعنا صياح السائق وهو يعطيه العرض الاخير:

ـ اننا على استعداد لاعطائك ما شئت من الطعام. . ولنسقيك ما شئت من ماء. . الست ترغب في ذلك؟

وخلال غبار زجاج نافذة السيارة، رأيناه يستدير ليواجهنا مصلوباً على بندقيته، كما شاهدناه دائماً، وهتفت شفتاه بصوت راجف:

ـ انها عطشى. . بل ربما تموت هذا المساء. .

وتحركت السيارات، وبقي المصلوب يتضاءل في البعد شيئا فشيئا حتى غيبه القيظ والغبار.

***

كانت نوبة الفلسفة ما زالت مكلبة بعقلي الزميلين في المقعد الخلفي.. ووجدت نفسي مرغما على ان أكرر لنفسي تلك الجمل الحقيرة التي ما برحت تفتك بعقلي منذ زمن طويل:

- هذه رحلة عجيبة.. اليوم ليست سوى مأساة.. وغداً سوف نقول عنها انها مغامرة..

كويت ١٩٦٠

سلسلة أعمال غسان كنفاني

١ ـ موت سرير رقم ١٢	قصص قصيرة
٢ ـ أرض البرتقال الحزين	قصص قصيرة
٣ ـ رجال في الشمس	رواية
٤ ـ عالم ليس لنا	قصص قصيرة
٥ ـ الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك)	رواية
٦ ـ ما تبقى لكم	رواية
٧ ـ أم سعد	رواية
٨ ـ العاشق / برقوق نيسان / الأعمى والأطرش	روايات
٩ ـ عن الرجال والبنادق	قصص قصيرة
١٠ ـ الباب	مسرحية
١١ ـ الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ـ ١٩٦٨	دراسة
١٢ ـ القبعة والنبي	مسرحية
١٣ ـ القميص المسروق وقصص أخرى	قصص
١٤ ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلة	دراسة
١٥ ـ جسر إلى الأبد	مسرحية
١٦ ـ في الأدب الصهيوني	دراسة
١٧ ـ عائد إلى حيفا	رواية

● يمكن الحصول على هذه السلسلة وبقية منشورات **مؤسسة الأبحاث العربية** من الموزعين والمكتبات أو مباشرة من **مؤسسة الأبحاث العربية** ص. ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران)، هاتف: ٨١٠٠٥٥ ـ ٨١٠٠٥٦، تلكس ٢٠٦٣٩ . دلتا ـ بيروت ـ لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**

P.O.Box 7047, Nicosia, Cyprus.

Tel. (357) 2 - 452670, Tlx. 5223 Rawafid - Cy.